المكتبة الثقافية

٩٠

أضــــواء على المجتمع العربى

الدكتور صلاح الدين عبد الوهاب

أول أغسطس ١٩٦٣

المكتبة الثقافية

٩٠

أضـــواء على المجتمع العربى

الدكتور صلاح الدين عبد الوهاب

أول أغسطس ١٩٦٣

الناشر

دار القلم

١٨ شارع سوق التوفيقية بالقاهرة
ت ٥٥٠٣٢ — ٧٧٧٤١

مقدمة

فى التعريف بالوطن العربى
وأقسامه السياسية الراهنة

يحتل الوطن العربى موقعاً استراتيجيا هاما فى العالم القديم ، إذ يصل بين ثلاث قارات هى إفريقية وآسيا وأوروبا . وهو يمثل وحدة أملتها ظروف جغرافية منذ عصور التاريخ الأول . ويكون رقعة من الأرض ذات معالم واضحة يقطنها منذ فجر التاريخ ، شعب متجانس نشأت فيه حضارات متقاربة ، يمكن القول بأنها منذ أغوار الماضى البعيد تمثل خطا حضاريا واحداً انطبع بانطباعة واحدة تصلح أساساً صلبا لوحدة سياسية واحدة .

ويمتد العالم العربى فى الشرق الأوسط بمفهومه الحالى وشمال غرب إفريقية فى منطقة تنحصر بين خطى عرض ١٠° و ٣٧° شمالا وبين خطى طول ٩٥ غربا و ٥٧° شرقا . أى أن امتداده يقع بين المحيط الأطلسى إلى الخليج الفارسى بما يزيد على ستة آلاف من الكيلومترات . أما امتداده إلى الجنوب فيسير مع نهر النيل فى وسط القارة الإفريقية لمسافة تقرب من الثلاثة

الآلاف كيلو متر . وبهذا يكون هذا الوطن إذا ضمته وحدة سياسية ثانى تنظيم سياسى فى العالم بعد الاتحاد السوفيتى من حيث المساحة . فساحة الوطن العربى تربو على مساحة قارة أوروبا بأكملها . ويقع نحو ٢٨ ٪ من هذه المساحة فى آسيا بينما تستأثر إفريقية بنحو ٧٢ ٪ . ويتصل الجزءان الأسيوى والإفريقى ولا ينفصلان لأن إفريقية ذاتها ما هى إلا امتداد شبه جذرى لآسيا مثلها فى ذلك مثل أوروبا .

والوطن العربى بحكم موقعه الجغرافى كان ولا يزال ممرا يربط بين الشرق الآسيوى والغرب . فبرزت من هنا أهميته للغرب الذى طمع فى استعمار بلاد الشرق البعيد التى كانت مستودعا كبيراً للمواد الخام من معادن وحرير وبهار وغيرها من المواد .

وقد كانت هذه المنطقة مسرحاً واسعاً لهجرات بشرية بسبب ما كان يطرأ على الجزيرة العربية من تغير فى ظروفها المناخية وإصابتها أحيانا بالجفاف ، فخرج الكنعانيون حوالى سنة ٤٠٠٠ قبل الميلاد ونزلوا بأرض سوريا وفلسطين ، والعموريون خرجوا من شبه الجزيرة بعد الكنعانيين بمائتى سنة ونزحوا إلى سوريا وفلسطين أيضا ، كما انطلقت منها جموع العبرانيين والآراميين

حيث استقروا فى الهلال الخصيب . وهكذا كانت الهجرات تتوالى حتى خرجت الهجرة العربية الكبرى فى القرن السابع الميلادى مع الإسلام ، وانتشرت فى البلاد المحيطة فى قارتى آسيا وإفريقية. وكان من نتيجة هذه الهجرات المتتالية ، أن تم التزاوج والامتزاج بين الشعوب مما كانا سببا فى تكوين وحدة المشاعر وتشكيل الحياة والتفكير على نسق متشابه فى جميع أجزاء هذا الوطن الكبير .

ويبلغ سكان الوطن العربى حوالى ٨٣ مليون نسمة . وهو بذلك إن شملته وحدة سياسية واحدة يكون الدولة الثامنة بين الدول بالنظر إلى عدد السكان : الصين الشعبية ٦٩٠ ، والهند ٣٩٥ والاتحاد السوفيتى ٢١٠ والولايات المتحدة ١٧٣ واليابان ٩٠ والباكستان ٨٥ وأندونيسيا ٧٤ مليونا . .

وكانت أهمية الوطن العربى كمعبر تجارى بين الشرق والغرب قد ضعفت باكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح فتحولت التجارة إلى الطريق الجديد ، وران الركود على البحر المتوسط ، ونجحت بريطانيا فى القضاء على نفوذ العرب فى التجارة باكتسابها السيطرة على البحار ، فكانت تستطيع عن طريق البحر عزل الداخل عن الساحل وبالتالى عن العالم الخارجى . .

ثم أعاد شق قناة السويس الحياة إلى المعبر العربى . وأصبح هذا الطريق هو شريان الحياة لبريطانيا لأنه هو أقصر الطرق الذى يصلها بمستعمراتها فى الشرق وخاصة درة التاج البريطانى (الهند) . ونتيجة لذلك صممت بريطانيا على السيطرة على الوطن العربى لتضمن بذلك السيطرة على طريق تجارتها ، فكان دخولها إلى مصر منذ عام ١٨٨٢ وعدم خروجها منها حتى عهد الثورة سنة ١٩٥٤ . وكذلك كانت إيطاليا تنظر إلى قناة السويس نظرة حيوية بعد دخولها منطقة الشرق وإقامتها نواة امبراطوريتها فى الحبشة وارتيريا والصومال الإيطالى . .

وقد بدأ تقطيع أوصال الوطن العربى بانتهاء الحرب العالمية الأولى ، إذ أعلن إقامة الانتداب الفرنسى على سوريا ولبنان ، والبريطانى فى فلسطين والعراق والأردن . وخضع شمال إفريقية للسيطرة الفرنسية منذ احتلال الجزائر سنة ١٨٤٠ وتونس سنة ١٨٨٤ ومراكش سنة ١٩١٢ كما تمت لإيطاليا السيطرة على ليبيا سنة ١٩١٢ .

واشتهر الوطن العربى فى نفس هذه الفترة باعتباره مستودعاً كبيراً لمادة من أهم المواد الخام وهى البترول . فزاد الاستعمار تشبثاً به كما بدأت الولايات المتحدة فى الدخول إلى منطقة الشرق

الأوسط لخدمة مصالحها الاقتصادية ، فحصلت على امتيازات واسعة في البحرين والكويت والسعودية فيما بين عامي ١٩٣٠ و١٩٣٤ ، كما نجحت في الحصول على نسبة ٢٣,٥٪ من بترول العراق الذي تضع بريطانيا يدها عليه .

وظهرت أهمية الموقع الجغرافي للوطن العربي مرة أخرى بانتهاء الحرب العالمية الثانية وبداية الحرب الباردة بين الاتحاد السوفييتي وحلفائه من جانب ،والولايات المتحدة وحليفاتها من الدول الغربية من جانب آخر ؛ إذ أنشأ المعسكر الغربي حلف الأطلنطي (Nato) وحلف جنوب شرق آسيا (Seato) وبدأت الدول الغربية في محاولتها الاستعمارية لضم الدول العربية لأحلاف عسكرية ، فتكون حلف بغداد ليكون أول قاعدة عسكرية تقف في وجه الاتحاد السوفييتي ، إلا أن هذا الحلف فقد أهميته منذ قيام الثورة في العراق في عام ١٩٥٨ وإطاحتها بالملكية . .

الحدود الطبيعية للوطن العربي :

الوطن العربي هو بقعة واضحة الحدود والمعالم . فتحيط به حدود طبيعية تتمثل في مياه البحر الأبيض المتوسط التي

تفصل أراضيه عن أوروبا ومياه الخليج العربى وخليج عمان التى تفصله عن إيران ، كما تحده من الجنوب الشرقى مياه المحيط الهندى . وبهذا يكون للوطن العربى جبهة ساحلية تسمح له بالإسهام فى حركة التجارة الدولية . .

وكذلك تساهم الجبال فى رسم حدود للوطن العربى . فتفصل المنحدرات الغربية لهضبة الحبشة بين أثيوبيا والسودان ، وجبال تيبستى (Tibesti) وجادو (Djado) ، والأدرار (Adrar) ، ودارفور تفصل كل من ليبيا والجزائر والسودان عن بقية جهات القارة الإفريقية . أما الحدود الشمالية للوطن العربى الآسيوى فتسير بحذاء المنحدرات الجنوبية لجبال طوروس وهضبة الأناضول وجبال كردستان . وقد حابى الغرب عند رسم الخريطة السياسية للشرق الأوسط تركيا على حساب العرب ، فضموا لواء الأسكندرونة إلى تركيا وقد كان جزءا من سوريا ، وكان ذلك بمقتضى معاهدة الدفاع المشترك التى أبرمت بين تركيا وبريطانيا وفرنسا عام ١٩٣٩ . . ويحاول الأتراك منذ ذلك الحين أن يمحوا الشخصية العربية لهذا اللواء فغيروا اسمه إلى « هاتاى » ، وتقوم الحكومة التركية بتشجيع الأهالى الأتراك على الهجرة إليه والاستقرار فيه . إلا أن ذلك لم يقف دون

محاولات العرب المستمرة لاسترداد اللواء السلوب وتعديل الحدود بما يتفق مع ما رسمته الطبيعة . .

وتحد الوطن العربى من جهة وسط القارة الإفريقية صحراء شاسعة . ورغم ذلك لم تقف مؤثرات العرب عن أن تمتد عبر الصحراء من شمال إفريقية إلى شمال غانا . ولهذا طبع أغلب سكان المناطق الشمالية من وحدات ساحل غانا السياسية بالطابع الحضارى والروحى الذى حمله العرب إليهم . .

والحدود الفلكية هى التى استخدمها الاستعمار فى تمزيق أوصال الوطن العربى فاعتبر خط عرض ٢٢° شمالا هو الحد الفاصل بين الجمهورية العربية المتحدة وجمهورية السودان . وخط طول ٢٥° شرقا هو الحد الفاصل بين الجمهورية العربية المتحدة وليبيا ... وهلم جرا ..

الأقسام السياسية الراهنة للوطن العربى :

ويشمل الوطن العربى كثيراً من الوحدات السياسة ، بعضها دول مستقلة كاملة السيادة ، وبعضها دويلات تخضع للنفوذ الأجنبى فى صورة أو أخرى .

فمن الدول كاملة السيادة نذكر : الجمهورية العربية المتحدة والعراق والسودان والجزائر والمغرب واليمن وتونس والكويت ولبنان والمملكة العربية السعودية وليبيا والأردن ثم سوريا . ومن الدويلات الخاضعة لنفوذ الغرب فى شكل حماية أو وصاية أو انتداب نذكر : محمية عدن وعمان وقطر وفلسطين المحتلة والبحرين ومستعمرة عدن وطنجة الدولية ..

مقومات تجانس المجتمع العربي

يسود المجتمع العربى مقومات المجتمع المتجانس التى تشعر أفراده، بأنهم مشدودون إلى بعضهم بوحدة الهدف ووحدة الوسيلة .

ونسوق فيما يلى أهم هذه المقومات :

الاشتراك في اللغة

«ويكفى أن الأمة العربية تملك وحدة اللغة التى تصنع وحدة الفكر والعقل ..»

(الميثاق الوطنى)

كتب الفليسوف هردر Herder (١٧٤٢ — ١٨٠٣) فى مؤلفه « فلسفة أخرى فى تاريخ البشرية » عن علاقة اللغة بنفسية الأمة وشخصيتها فقال :

« إن الطبيعة فرقت الشعوب بعضها عن بعض ، ليس بواسطة الغابات والجبال والبحار والصحارى والأنهار ... فحسب ، بل فرقتها أيضاً — وبوجه أخص — بواسطة اللغات والميول والسجايا .. »

« إن اللغة القومية بمنزلة الوعاء الذى تتشكل فيه وتنتقل بواسطته أفكار الشعب » .

« اللغة ... سواء أقلنا إنها خلقت دفعة واحدة من قبل الله ، أم ذهبنا إلى أنها تكونت تدريجياً بعمل العقل ... لا يمكن

أن نشك فى أنها — فى الحالة الحاضرة — هى التى تخلق العقل أو — على الأقل — تؤثر فى التفكير تأثيراً عميقاً ، وتسدده وتوجهه توجيهاً خاصاً .. »

« إن قلب الشعب ينبض فى لغته ...

« إن روح الشعب تكمن فى لغة الآباء والأجداد ... »

وفى هذا المعنى أيضاً قال : الكاتب الألمانى ماكس نوردو Max Nordau .

« إن الفرد يندمج فى المجتمع باللغة وباللغة وحدها ...

« وباللغة يصبح عضواً فى الشعب الذى يتكلمها ...

« وباللغة ، وباللغة وحدها يتلقى كل تراث الأمة الفكرى والشعورى والأخلاقى والاجتماعى ، المنحدر من قرائح الكتاب والشعراء والمفكرين السابقين منهم والمعاصرين ... »

ويكفى أن نذكر أن اللغة كانت ركنا من أركان القومية فى جميع البلاد الأوربية التى توحدت بعد أن كانت مجزأة بين مئات من الوحدات السياسية . ونسوق مثلا لذلك الوحدة الألمانية التى تمت على أساس شعور جميع الناطقين باللغة الألمانية ، أنهم أبناء أمة واحدة رغم انقسامها إلى ما يقرب من ألفى دويلة فى وقت من الأوقات ، وعمل الألمان بما يحتمه عليهم هذا الشعور

وهذا الإيمان فقاوموا وجاهدوا حتى كونوا دولة موحدة ..

والوحدة الإيطالية ، فإنها تمت على أساس من اللغة ..

كما إن استقلال البولنديين واتحادهم على أساس اعتبار جميع الناطقين باللغة البولونية أمة واحدة ..

وكما تكون اللغة فى وحدتها بين الشعوب عامل وحدة بينها ، كذلك يكون اختلافها بين أجزاء وحدة سياسية واحدة عامل انحلال فيها ، ومن قبيل ذلك ما تم من انحلال الإمبراطورية العثمانية بعد أن انفصلت عنها كل الشعوب التى كانت تتكلم بغير اللغة التركية . كما انفصلت عن الإمبراطورية النمساوية جميع الأقاليم التى كان سكانها يتكلمون بغير الألمانية ..

ومن كل ما تقدم يبين صدق ما يقول به بعض شراح القومية من أنه ، لو كانت القومية قائمة على شرط واحد ، لكان هذا الشرط هو اللغة لأن الاشتراك فى اللغة هو أكبر عامل يولد فى نفوس الناس إرادة الانتظام فى أمة واحدة . فالشعوب التى تتكلم لغة واحدة لابد أن تتوحد طريقة تفكيرها وأن تتوثب روحها إلى غايات مشتركة . ولذلك يسهل عليها تكوين أمة واحدة تتطور بحكم طبيعة الأمور والسير المنطقى للأحداث إلى وحدة سياسية ..

وعنصر الوحدة اللغوية متوفر فى الوطن العربى بجميع وحداته السياسة وبين الغالبية العظمى من سكانه؛ إذ تبلغ نسبة المتكلمين بها نحوا من ٩٤٪ من عدد أفراد الشعب العربى. على أن هذه الوحدة لا يؤثر فيها تعدد اللهجات. فالمسلم أن تعدد اللهجات واقعة لا غنى عنها فى أية لغة. ولا أدل على صحة ذلك من اختلاف لهجة الاسكتلندى عن الولش: (الأصيل من مقاطعة ويلز Wales بانجلترا) واختلاف كلتا اللهجتين عن اللهجة الإنجليزية القح، وكذلك تختلف لهجة الأمريكى الشمالى اختلافا كبيراً عن لهجة الأمريكى الجنوبى، أى الأصيل من المقاطعات الجنوبية. بل إنه فى شمال أمريكا تختلف اللهجات تبعا للولايات، فالمتوطن فى ولاية نيويورك تختلف لهجته عن المتوطن فى ولاية نيوهامبشير أو فيرمونت بأقصى الشمال. ولم يقل أحد إن اختلاف هذه اللهجات يقدح فى توافر عنصر وحدة اللغة فى المملكة المتحدة أو فى أمريكا.

واللغة الفصحى التى نتكلمها اليوم هى لغة قريش، وهى اللغة التى سادت بفضل نزول القرآن الكريم بها نخلدها على كر الأيام والسنين. فهذه اللغة انتشرت بانتشار الإسلام وصارت بعد فترة زمنية محدودة، لغة الدين والعلم والأدب والثقافة والسياسة من

حدود الصين شرقا حتى المحيط الأطلسى غرباً ، ولم تصمد لها السريانية فى الشام والعراق ، ولا القبطية فى مصر ، ولا اليونانية التى كانت تسود فى الأقطار الثلاثة ، ولا اللاتينية التى كانت تسود شمال إفريقية . كما أن العربية أثرت إلى حد كبير على اللغتين الفارسية والتركية حتى إن سبعين فى المائة من الألفاظ العلمية فى اللغة التركية هى ألفاظ عربية .

وهذه اللغة ذاتها هى التى يستطيع العربى فى عدن أن يتفاهم بها مع العربى فى السودان وأن يتلاقيا عند وجهة نظر واحدة .

ولهذا وجب التنبيه إلى خطورة تشجيع اللغة العامية وإحياء اللهجات المحلية .. لأن فى ذلك تفريقا لمجتمع العرب وهدما لأهم صرح من صروح وحدة هذا المجتمع وتجانسه .

والاستعمار ينتهز فرصة هذه اللغات العامية أو الدارجة ، فيضرب على وترها ليشيع الفرقة بين الشعوب العربية . ففى أمريكا كنا نقرأ كل يوم مقالا لكاتب لغوى كبير يذهب إلى أن العالم العربى ليس فيه لغة عربية وإنما لغة مصرية ولغة لبنانية ولغة عراقية وهلم جرا ... وأن اقتصار اللغة العربية على الكتابة دون التخاطب يجعلها لغة ميتة كاللغة اللاتينية تماماً . ولهذا فإننا نجد المبعوثين التسعة الذين أرسلوا على نفقة الحكومة الأمريكية

ليدرسوا علم اللغات المتكلمة linguistics قد قدموا رسائلهم لنيل درجات الدكتوراه فى اللهجات المحلية بحسبان أنها لغات مختلفة . فقدم أحدهم رسالة عن اللهجة الدمشقية ، وقدم آخر رسالة عن اللهجة المصرية . وهكذا .

والعجيب أن المبعوثين التسعة لم يدرسوا بجامعة واحدة ، بل انتظم كل ثلاثة منهم فى جامعة . ففريق كان بجامعة تكساس ، والفريق الثانى بجامعة ميتشان (ميتشجان) والفريق الثالث بجامعة كورتل .

ولقد ضربت هذا المثل لأبين بعد نظر السياسة الاستعمارية التى تسخر العلم لخدمة أغراضها .

ولا شك أن رسالات هؤلاء المبعوثين ستكون مرجعاً هاما للأمريكيين وغيرهم فى اللهجات التى كانت موضوع دراسة فى كل منها . فيستطيع القارئ الأمريكى أن يهضم اللغة العربية فى لهجتها التى يقرأ الرسالة التى تناولتها فى سهولة ويسر بعد أن حضرت له كل أصوات اللغة والحروف الساكنة والحروف المتحركة فى جدول رياضى مشفوع بأمثلة من الكلمات والجمل .

إن اللغة العربية هى لغة الراديو والصحافة والتليفزيون وسائر وسائل الأعلام . فهى بهذه المثابة الأداة الفعالة لتنمية الوعى

القومى لدى العرب فى جميع أجزاء الوطن العربى . وفصلا عن ذلك فإن التوعية الثقافية لاتعرف حدوداً سياسية . ولا أدل على ذلك من أن شعراء : كأحمد شوقى وحافظ إبراهيم من مصر ، وخليل مطران وأمين الريحانى وبشارة الخورى من لبنان ، ومعروف الرصافى وجميل صدقى الزهاوى من العراق ، وعمر أبو ريشة وسليمان أحمد ونزار القبانى من سوريا ، يقرأ لهم شباب العرب من جميع الأقطار بشغف وحب . كل ذلك بسبب الاتحاد فى اللغة التى تعتبر بحق أجود موصل للكهرباء الثقافى وبالتالى وحدة الأفكار .

الاشتراك فى فصول التاريخ

« يكفى أن الأمة العربية تملك
وحدة التاريخ التى تصنع وحدة
الضمير والجدان » .

« الميثاق الوطنى »

وحدة

التاريخ تلى وحدة اللغة أهمية فى ترتيب مقومات المجتمع العربى . فإذا كانت اللغة تمثل روح الأمة وحياتها فإن التاريخ يصنع ذكرياتها ومشاعرها .

ولعل الأمة العربية من أكثر الأمم فى العالم التى عاشت تاريخا واحداً. فوحدة الكفاح ضد الصليبيين والمغول والعثمانيين والإنجليز والفرنسيين والصهيونيين ، والاشتراك فى الحوادث ، وانتقال المعارك والأبطال عبر الحدود المصطنعة التى تفرق أقاليم العالم العربى بعضها عن بعض ، كل ذلك يخلق نوعاً من الإرث التاريخى الذى يقرب شعوب هذه الوحدات السياسية المختلفة بعضها إلى البعض ، ويخلق بينها تضامنا فى الشعور وتكاتفا فى الشدائد .

وكلنا يذكر الاعتداء الثلاثى على قناة السويس ، وما حدث

من رد فعل شديد تجاهه لدى جميع الشعوب العربية . ثارت المظاهرات وقام المتظاهرون بتفجير أنابيب البترول فى العراق وسوريا حتى يصيبوا الغرب بكوارث وخسائر اقتصادية ، قد تعجزه أو على الأقل ، تؤثر فى الحصار الذى كان يضرب به على مصر وقتئذ .

وإذا أردنا أن نحلل وحدة التاريخ كعنصر من عناصر تجانس المجتمع العربى ، فإن علينا أن نفرق بين مرحلتين من مراحل التاريخ :

(أ) مرحلة ما قبل الإسلام .
(ب) مرحلة ما بعد الإسلام .

(أ) تاريخ العرب قبل الإسلام

ليس لدينا مصادر كثيرة يعول عليها علميا فى معرفتنا تاريخ العرب قبل الإسلام إلا ما جاء بالتوراة (سفر التكوين الذى ذكر بعض أحوال الأمم العربية القديمة) وكذلك بعض ما جاء بكتابات المؤرخ اليونانى هيرودوتس (٤٨٠ — ٤٢٥ قبل الميلاد) إذ أشار فيها إلى أخبار العرب عند تناوله الحروب بين فارس ومصر على عهد قمبيز فى القرن السادس قبل الميلاد .

وعلى رأس المصادر العربية القرآن ، فقد جاءت به أخبار عن عاد وثمود ومملكة سبأ وما إلى ذلك .

وكذلك كتب ابن هشام فى مؤلفه (المعارف) عن أنساب العرب حسب تسلسلها ، وأعقبه اليعقوبى المعروف بابن واضح المتوفى سنة ٢٨٥ هـ على الراجح والذى ألف كتابا من جزأين اشتمل الأول منهما على أخبار قدماء العرب ، ثم أعقبه ابن جرير الطبرى المتوفى سنة ٣١٠ هـ الذى عالج فى كتابه « تاريخ الأمم والملوك » تاريخ البشرية منذ بدء الخليقة حتى عصره . ثم تعاقب مؤرخون آخرون كحمزة الأصفهانى فى كتابه « سنى ملوك الأرض » وابن الأثير وابن كثير الدمشقى إلى أن جاء ابن خلدون الذى عالج تاريخ العرب فى الجزء الثانى من مطوله فى التاريخ .

وإلى جوار كل هذه المؤلفات توجد أشعار العرب الجاهليين .

وقد وجدت من دول العرب قبل الإسلام الدولة المعينية التى وحدت إمارات اليمن فى القرن العشرين قبل الميلاد المسيحى ، والدولة السبئية التى فرضت سلطانها على جميع إمارات اليمن ووحدتها تحت رايتها فى القرن العاشر ، وحاربوا بشدة كل من

حاول الخروج على هذه الوحدة ، ثم برزت الدولة الحميرية فى القرن الأول قبل الميلاد وفرضت سلطانها على إمارات اليمن أيضا . ولم يكن بعض هذه الدول يكتفى بوحدة اليمن فى الجنوب ، بل كان يحاول مد سيادته إلى أطراف الجزيرة الأخرى . وقد فعل ذلك بعض ملوك الدولة المعينية إذ اكتشفت آثار معينية كثيرة على شواطىء البحر الأبيض وخليج البصرة وأعالى الحجاز ومشارف الشام ومنطقة العقبة وبعض أطراف العراق .

وقد فعل ذلك أيضاً ملوك دولة حمير الذين انتزعوا السلطان من السبئيين فى القرن الأول قبل الميلاد ، إذ فرضوا سلطانهم على إمارات اليمن أولا ، وصاروا يلقبون بلقب ملك سبأ وزوريدان وحضرموت ويمنات . ثم اتجهوا إلى الشمال فبسطوا سلطانهم على تهامة والحجاز ، ونحو الشرق فبسطوا سيادتهم على شواطىء البحر الأحمر وخليج البصرة .

أما فى الشمال فقد وجدت دول أخرى منها دولة الغساسنة التى تأسست فى الشام ، وبلغت ذروة مجدها فى القرن السادس الميلادى ، دولة اللخميين التى كانت تلقب أيضا بدولة المناذرة ودولة الحيرة وتأسست بالقرب من مدينة الكوفة فى القرن

الثالث الميلادى ، وقد كانت دولة الغساسنة نصيرة الروم على الفرس وكان اللخميون مناصرين للفرس على الروم . .

ومن أشهر حركات التوحيد التى قامت بها العناصر العربية التى استقرت فى وادى النيل ، ما قام به الملك «مينا» قبل الميلاد بنحو من أربعين قرنا من توحيد دولتى الشمال والجنوب . وامتدت محاولات التوحيد بعده إلى السودان وإلى فلسطين والشام ومحاولة توحيدها سياسيا مع مصر . وفى عهد الأسرة الثانية عشرة تم توحيد بلاد الشام والنوبة والسودان والحبشة مع مصر . .

ثم وقف تيار التوحيد بين ملوك العرب ، وبدأت بلادهم تتعرض لغزوات أجنبية تخضعهم لسيطرتها وتجمع بينهم فى الإحساس وإن تفرقت بهم الأقطار . فقامت فى العراق الإمبراطورية الفارسية بعد أن دمرت دعائم دولة البابليين ، ثم خرجت بسلطانها إلى الشام ثم مصر . ثم زحف الإسكندر الأكبر نحو الشرق فى أواخر القرن الرابع قبل الميلاد وبسط ملكه على مصر والشام والعراق . .

غير أن ملك الإسكندر لم يدم طويلا فى هذه البقعة من العالم

العربى ، إذ سرعان ما تنافست ثلاث دول على السيادة الكاملة على أقطار العالم العربى . .

فقامت دولة البطالسة فى مصر ودولة السلوقيين فى الشام ، ودولة الساسانيين فى بلاد العراق وفارس . واستمرت الحرب بين هذه الدول الثلاث حتى نزل الرومان إلى الشرق فى أواسط القرن الأول قبل الميلاد ، وأعادوا وحدة الوطن العربى تحت رايتهم فيما عدا العراق الذى ظل تحت سلطان فارس . .

(ب) تاريخ العرب بعد الإسلام :

وحين جاء الإسلام كان الشعب العربى ، يفتقر إلى الوحدة السياسية إذ اقتسمت البلاد حكومات محلية ضعيفة فى شمال الجزيرة وحكومات قبلية ومشيخات فى وسطها وحكومات أجنبية فى مصر والشام والعراق . وفضلا عن كل ذلك فكان سلطان الدولة الحميرية قد انهار فى اليمن وآل الحكم فيها إلى الفرس .

إلا أن ذلك التقسيم لا يعنى تخلف الاشتراك فى التقاليد وفى العاطفة وفى الحضارة ، بل كانت عناصر هذا الاشتراك قوية تملى وحدة عسكرية صلحت أساسا محكماً لبناء جديد أتى به الإسلام .

وقد جاء الإسلام برسالة ثورية اقتلعت جذور التنافس القبلى والحقد العنصرى من نفس العرب، ودعا إلى أساس جديد فى العقيدة الإلهية ومثل عليا جديدة فى السلوك والأخلاق والحياة الاجتماعية، فعبأ نفوس العرب بالرغبة فى الانخراط فى بعث عربى شامل أساسه عالمية الدين وما عزت به العرب من نزول القرآن خاتم الرسالات السماوية بلغتهم العربية .

ولم تهيئ الديانة الجديدة للعرب فرصة الوحدة فى العقيدة فقط، وإنما أفسحت لهم المجال لكى تنصهر تقاليدهم جميعا فى بوتقة جديدة تمد الأمة العربية بمدن جديد من التقاليد والأخلاق والحياة الاجتماعية . وكان نجاح هذه الدعوة الجديدة وانتشارها فى أرجاء الأرض إيذانا ببزوغ نجم العرب وإقامة حضارة جديدة أشاعت النور فى العالم إبان العصور الوسطى الحالكة الظلام . .

وأول وحدة سياسية أقيمت فى ظل الإسلام، كانت دولة المدينة التى أقامها رسول الله صلى الله عليه وسلم بيثرب بعد هجرته إليها من مكة، وفى هذه الوحدة السياسية انتظم عقد فئات ثلاث من العرب : اليهود الذين ارتضوا الخضوع لسلطان النبي، والمهاجرون الذين هاجروا معه من مكة مفضلين ترك أموالهم

وأعمالهم من خلفهم للسعى فى سبيل الله ، والأنصار الذين ناصروه وآزروه عند هجرته إلى المدينة . وكذلك أنهى النبي فى هذه الحقبة من الزمن الخلاف المستحكم بين أهم قبيلتين فى يثرب وهما الأوس والخزرج ، فعاشوا معا أخوة فى ظل تعاليم هذا الدين الجديد .

ولما استقر المقام بالنبي فى المدينة بدأ فى إرسال الرسل إلى سائر أجزاء الجزيرة العربية لدعوة أهلها إلى قبول الدين الجديد، وفى الوقت نفسه لم تقف وفود القبائل عن الاختلاف إلى المدينة مستطلعة مستفسرة تلقى من المسلمين معاملة كريمة تحببها إلى الدخول فى الإسلام ، حتى إذا ماعادت إلى ديارها كانت قوة فعالة من قوى نشر هذا الدين وتلقين أصوله إلى أعضاء قبائلهم .

ولما لم تقف قريش عن محاولة اقتلاع جذور هذا الدين عند حد السلبية والمقاطعة ، بل تعدتها إلى التحرش السافر والاعتداء الصارخ على كل من يظهر إسلامه أو تعاونه مع المسلمين ، وكان لا بد من وقوف المسلمين فى وجه الضغط والإرهاب فاستعملوا أكثر من سلاح .

استعملوا سلاح الحصار الاقتصادى لتقويض الأساس الذى تعتمد عليه قريش فى تفوقها ؛ وظهرت فاعلية هذا السلاح حينما

بدأ المال يتسرب إلى المدينة باطراد الداخلين فى الإسلام . ثم أخذت قوافل المسلمين تتعرض للقرشيين حتى كادت تقطع الصلة الاقتصادية بين قريش والشام . وأدى كل ذلك إلى وقوع معركة بدر .

كذلك اضطر المسلمون للدفاع عن أرواحهم وأموالهم وعقيدتهم بالقوة ضد القرشيين عندما أصبح ذلك الالتحام أمراً واجباً إزاء الهجمات المستمرة من قريش على المسلمين ؛ وبدأت قريش فى تأليب العرب جميعاً على المسلمين وجمع شملهم فى أحلاف عدوانية لتنفيذ سياستها فى الإصرار على القضاء على هذا الدين . فاستطاع المسلمون إزاء ذلك كله ، أن يفضوا هذه الأحلاف وأن يعزلوا قريشا عن حلفائها .

ولم يلبث العرب جميعاً أن اجتمع شملهم والتأم عقدهم بما فيهم قريش تحت راية الإسلام ، حتى أذعنت شبه الجزيرة العربية كلها لسيادة الدولة الإسلامية فدخل فيها بلاد اليمن وحضرموت وعمان فضلا عن أطراف العراق والشام . وتحقق بذلك حلم العرب فى الوحدة السياسية بزعامة النبى .

كان لا بد والدولة العربية الإسلامية تسيطر على جزيرة العرب جميعها ، أن تقع المناوأة من الدول المجاورة التى تخشى من

هذا التوسع العربي وترى فيه خطراً دينيا وسياسيا معا . فوقعت معارك كان لا بد من وقوعها بين العرب والروم من جهة وبين العرب والفرس من جهة أخرى ، وانتصر العرب فى كل هذه المعارك وبدأت دولة الإسلام تتسع لتشمل الشام والعراق ومصر، ثم شمال إفريقية والسودان والحبشة ، ثم إيران وما بعدها فى زمن لاحق حتى وصلت جحافل المسلمين إلى حدود الصين شرقا وحدود فرنسا غربا من ناحية إسبانيا .

كانت هذه الإمبراطورية الإسلامية الشاسعة تشكل وحدة سياسية وفكرية واجتماعية وعقائدية واحدة طوال عهد الخلفاء الراشدين ،ثم فى عهد الدولة الأموية ، ثم فى المائة سنة الأولى من عهد الخلافة العباسية ، وحتى عندما بدأت عوامل الفرقة تدب إلى كيان الدولة العربية الإسلامية نتيجة أحقاد الشعوبيين من الموالى والفرس،وطمع حكام الأقاليم،ظلت مظاهر الوحدة قائمة من حيث الظاهر،ذلك لأن عقيدة الإسلام التى أثرت فى الشخصية العربية كانت قد تمكنت من نفوس العرب ، فكان الخليفة هو صاحب السيادة العليا ولو من حيث الشكل فقط .

على أنه جاء عهد انقسمت فيه الوحدة السياسية للدولة العربية بقيام الخلافة الفاطمية فى مصر إذ كانت تقوم فى بغداد خلافة

عباسية ، وفى مصر خلافة فاطمية ، وفى قرطبة خلافة أموية ، وفى وسط هذا الانقسام نشط الصليبيون لغزو البلاد الإسلامية العربية فى الشرق والغرب .

على أن الفقهاء يرون أن هذا الانقسام كان عارضاً طرأ على مبدأ وحدة الخلافة أى وحدة الأمة العربية سياسيا . فلم يمثل معنى التخلى عن فكرة قيام دولة عربية موحدة ، وإنما كان فى حقيقته نوعاً من الصراع بين عائلات وأشخاص يدعى كل منهم أنه أحق بالحكم من غيره فى العالم العربى الإسلامى بجميع أجزائه ، فمنذ تم القضاء على الخلافة الفاطمية ، عادت الوحدة السياسية لأقطار الوطن العربى تحت سلطان الدولة الأموية فى إطار الخلافة العباسية ، واستمرت هذه الوحدة قائمة تحت نفوذ دولتى المماليك والشراكسة اللتين قامتا على أنقاض الدولة الأيوبية .

وبانتصار السلطان سليم العثمانى على السلطان قانصوه الغورى سنة ١٥١٦ بمصر ، انبسط سلطان الدولة العثمانية على جميع الأقطار العربية ابتداء من الجزائر إلى خليج البصرة ، وظلت البلاد العربية فى إطار هذه الوحدة السياسية حتى انفصلت عن تركيا بانتهاء الحرب العالمية الأولى .

* * *

وبذلك يكون العالم العربى قد عاش جل حياته فى وحدة تاريخية شاملة بفضل النظرية السياسية الإسلامية . وقد انهارت هذه الوحدة منذ انتهاء الحرب العالمية الأولى ودخول الدول الغربية المستعمرة إلى الشرق والغرب العربيين تحت صور الغزو والانتداب والحماية حتى كان دخول الصهيونية إلى أرض فلسطين العربية ، وإقامة إسرائيل كقاعدة غربية استعمارية فى قلب العالم العربى لتكون كالشوكة فى رقبته تمنعه من الحركة والتقدم .

وحدة المصالح والآمال

« يكفى أن الأمة العربية تملك
وحدة الآمــال التى تصنع وحدة
المستقبل والضمير » .
«الميثاق الوطنى »

إن المشاهد فى التكتلات العالمية المعاصرة أنها تقوم على مبدأ المصلحة المشتركة من سياسية واقتصادية وعسكرية . والأمثلة على ذلك كثيرة متنوعة ، فهناك مجموعة الكومنولث البريطانية ، والمجموعة الأمريكية ، والمجموعة الشيوعية فى أوروبا الشرقية ومجموعة الدول المشتركة فى حلف الأطلنطى ، ثم مجموعة عــدم الانحياز أو المجموعة الآسيوية الإفريقية .

فكل من هذه المجموعات الدولية تتجه فى تكتلها إلى العمل على تحقيق هدف مشترك من شأنه أن يوحد بينها فى الجهود ، وقد تضم دولا غريبة عن بعضها فى الأصل لا تجمع بينها روابط أخرى من لغة أو تاريخ أو حتى جنس . ومع ذلك فإن هذه الدول تتماسك فيما بينها لأنها تعلم أن طريقها للتقدم وتطلعها

لتحقيق الرفاهية والسعادة لشعوبها ، لا يمكن أن يتم إلا عن طريق تنسيق جهودها وتعبئتها . ولعلنا لا نزال نذكر الأزمة التى قامت بين انجلترا وسائر أعضاء مجموعة الكومنولث عند ما قررت انجلترا الانضمام إلى السوق الأوروبية المشتركة .

بل وأكثر من ذلك ، قد يجمع الاشتراك فى المصالح بين عدوين لم يكن أحد يتوقع أن يتم بينهما تعاون فى يوم من الأيام كفرنسا وألمانيا اللتين اجتمعتا فى أكثر من تكتل واحد فهما عضوين فى حلف الأطلنطى ، وفى اتحاد الصلب والفحم وفى غيرها مع أن عداوتهما الأصيلة القديمة لا تخفى على أحد ، فإذا كان هذا هو حال الدول التى لا يمكن القول بدخولها فى مدلول المجتمع المفرد المتميز على سائر المجتمعات والمتجانس بما فيه من مقومات ، فكيف الحال بالدول العربية التى توافرت لشعوبها كل مقومات الاشتراك والوحدة .

إن العالم العربى فيه من مصادر الثروة الطبيعية واليد العاملة والسهول الخصبة الصالحة للزراعة الشىء الكثير الذى كان يكفى لتحقيق الرفاهية الاقتصادية فى جميع أجزائه . إلا أن الاستعمار الغربى أفلح فى بث بذور الحقد والضغينة فى نفوس بعض الحكام

العرب فصاروا يفضلون الارتماء فى أحضان الغرب يستغل مواردهم لصالحه ، ثم يلقى إليهم بالفتات ، على أن تنظيم التعاون بينهم و بين أجزاء أخرى من العالم العربى قادرة بما توفر لديها من علم وصناعة وأيد فنية على استغلال هذه الموارد على الوجه الأكمل للصالح العام للأمة العربية . ولا أدرى سبباً لذلك إلا أن المصالح الشخصية لهؤلاء الحكام تتمثل فى البقاء خدما للاستعمار لأنه يحميهم من شعوبهم التى لايصل إليها من مقابل استغلال ثرواتها شيئاً إلا ما يتفضل به هؤلاء الحكام عليهم وهو لايغنى ولا يسمن من جوع . إلا أن الوعى القومى لن يلبث أن يغزو عقول جميع أفراد هذا الشعب العربى المكافح فيثور لكرامته المهدرة ولحقوقه المضيعة ومصالحه المغتصبة .

وفضلا عن ذلك فإن الشعب العربى الذى خرج من تجربة الاستعمار بأنواعه المختلفة من تركى وفرنسى وانجليزى مرهقاً ، خرج أيضاً بإصرار عميق على كراهية الاستعمار وعلى هزيمته ، خرج بدرس عظيم الفائدة عن حقيقته .

إن الاستعمار — كما يقول الميثاق — ليس مجرد نهب لموارد الشعب وإنما هو عدوان على كرامتها وعلى كبريائها . فالاشتراك فى الاستهداف للاستعمار الاقتصادى والسياسى يكون ولا شك اشتراكا فى المصالح والآمال .

ولهذا فإن تعبئة قوى هذه الأمة العربية أمر لازم لاستعادة مكانتها الحضارية فى العالم المعاصر ، والمشاركة فى عجلة الدفع الذى تدور بالعالم الآن نحو الاكتشافات العلمية الخطيرة . إن ذلك لايمكن أن يتم مع ما عليه العالم العربى من فرقة وانقسام بل لابد فيه من تكاتف وتآزر والعمل فى ظل وحدة سياسية شاملة.

على أننا لانقول إن الوحدة العربية المأمولة ليست إلا صورة دستورية واحدة لا مناص من تطبيقها ، ولكن الوحدة العربية طريق طويل قد تتعدد عليه الأشكال والمراحل وصولا إلى الهدف الأخير .

ولا يقل عن ذلك أهمية ما نرجوه من ملء الفجوات الاجتماعية الناجمة من اختلاف مراحل التطور بين شعوب الأمة العربية . هذا الاختلاف الذى فرضته قوى العزل الرجعية والاستعمارية .

إن هذا الاشتراك الثابت الجذور فى المصالح الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والآمال التى يسعى كل شعب متطلع إلى تحقيقها ، يبرر وحدة العمل على تحقيق الوحدة ويكون بذاته عنصرا رئيسياً من عناصر تجانس المجتمع العربى .

الاشتراك فى الجانب الردىء

يعيب بعض الغربيين على القومية العربية، أنها فكرة غير محددة وغير منضبطة لاختلاطها بالإسلام، وتداخل كل فى الآخر تداخلا يفقده ذاتيته وجوهره . وفى ذلك يقول جويل كارميشيل :

Thns Arab Nationaʅism is handicapped in its effoat to define itself by the shoreiessness of lsʅam and by the self-in terests of iocal buaeavcracies ·

ويمضى جويل كارميشيل بعد ذلك إلى القول بأنه يستحيل على القومية العربية أن تسلخ نفسها من الإسلام . ولهذا السبب فإنها أثبتت عجزها عن إتيان أية نتائج إيجابية بالرغم من استيرادها نظرية القومية من أوروبا . . ويرجع هذا الفشل إلى أن الإسلام لا يمثل مجتمعا متجانسا متماسكا بالمعنى المفهوم لدى الغرب بدليل أنه لم يحل دون انقسام العالم الإسلامى إلى مجتمعات فردية يسير كل منها فى طريق يبتغى به تحقيق آماله خاصة . ولا يحدث تضامن بين هذه المجتمعات المتعددة إلا حيث تقضى

بذلك المصالح السياسية أو الاقتصادية والتى لاتحدث فى العمل إلا نادراً .

هكذا يهاجم الكتاب الغربيون المجتمع العربى : إنه فى تطلعه للوحدة بدافع القومية يتعثر فى الإسلام فلا يتقدم فى طريقه .

ولعل هؤلاء الكتاب يتجاهلون أثر الدين فى تكوين المجتمعات المنظمة ، فقد كان الدين دائما هو الحافز للانسان إلى عمل الخير والزاجر له على عمل الشر والمنظم لحياته الاجتماعية بما يضفيه من روحانية على حياته المادية .

ولعل الإسلام بالذات هو الدين الوحيد الذى تعدى صلة الخالق بعبده ليتنظم صلة الإنسان بأخيه الإنسان.. فقدكان الدين الذى حض العرب على تلقى العلم وجعل للعالم درجة على العابد ، كما أنه قضى على العصبية القبلية بين العرب وسوى بين الناس فى ديمقراطية محببة وجعل معيار التفاضل بين الناس هو التقوى ، وهو الدين الذى تضمن تنظيما كاملا للأسرة والحياة الاجتماعية وبين حقوق كل فرد وواجباته ، وكان الدين الذى وضع للمجتمع خططاً اقتصادية ليسير عليها تحقيقاً للرفاهية بين أفراده ، وكان الدين الذى رسم أسلوب الحكم وجعل طاعة الحاكم العادل فى مرتبه الواجب الدينى وسواها بطاعة الله ورسوله ، ثم كان الدين

الذى سبق كل الثورات الإنسانية فى تقرير حقوق الإنسان ، وكان أخيراً هو الدين الذى وحد شمل الأمة العربية ومكن لها فى الأرض . وبذلك لا يكون الإسلام للعرب دينا فحسب، بل هو رمز حضارتهم ومصدر شعورهم بشخصيتهم المتميزة التى لا يمكن أن يكتب لها قيام وازدهار إلا بتعاليمه واتباع أحكامه .

وقد كان غير المسلمين يعيشون دائما مع المسلمين فى إطار من السلام الشامل تحت حكم الإسلام ، فلا يجدر الآن أن نقول إن اعتبار الإسلام عنصر وحدة بين العرب يثير بينهم خوفا وتساؤلا .

على أنه يجب ألا نخلط بين الدعوة إلى الوحدة العربية والدعوة إلى الوحدة الإسلامية . فالدعوة الأخيرة تقوم على عامل واحد هو الإسلام وتجمع فى ذلك بين العرب وغيرهم ، من الأمم التى لا تمت للعروبة بسبب كالباكستان وأندونيسيا وأفغانستان وغيرها من الدول الإسلامية . أما الدعوة الأولى فأساسها متعدد الجوانب يمثل الدين جانباً واحداً منها . فالإسلام هو دين الغالبية العظمى (٩٤ ٪) من سكان العالم العربى وبهذه المثابة لا يمكن إغفال أثره الفعال فى تكوين المجتمع العربى وفى تمييزه عن غيره من المجتمعات غير الإسلامية .

وذلك كله لايعنى فى نظرنا أن العربى الغيور على عروبته هو العربى المسلم فحسب ، فقد شهد التاريخ بكفاح كثير من العرب المسيحيين فى سبيل العروبة ووحدة العالم العربى كفاحا يعز على الوصف والتقدير. بل إن اعتبار الإسلام شرطاً من شروط الانتماء إلى الأمة العربية يتضمن خروجا عن منطق القومية .

والإسلام نفسه يثنى على المسيحية ؛ فيقول الله عز وجل فى كتابه العزيز : « ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ، ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون » (المائدة آية ٦٨). والخلاف القائم بين الإسلام والمسيحية ليس خلافا جذريا فى أساس العقيدة ، بل هو خلاف فى التفسير . فالوحدانية معترف بها فى الدينين ولكنها فى المسيحية وحدانية مركبة من عناصر ثلاثة هى : الأب والابن والروح القدس . ومهما قيل فى الخلاف الدينى أو العقيدى بين المسلمين والمسيحيين ، فإنه لا يحول دون التعايش الهادئ بينهما والمشاركة فى الوجدان والضمير .

وفضلا عن ذلك فإن الإسلام كمذهب مثالى فى الحياة لاشك فى أنه طبع الحياة العربية بطابع خاص فى الأسلوب والعادات الاجتماعية ، لافرق فى ذلك بين مسيحى ومسلم مما يجدر معه القول

بان الإسلام يكون تراثا مشتركا للمسيحيين والمسلمين .

الدعوة العربية والدين

لم يسبق لموضوع أن أثار من الجدل ما آثاره الدين ومكانه في الدعوة العربية .

ويمكن تبين اتجاه يسود كتابات الباحثين في هذا الموضوع يذهب إلى وجوب استبعاد الدين كلية من نطاق الدعوة العربية وعدم إمكان التزاوج بينهما . وعدد أنصار هذا الرأى كبير ، ولذلك فإننا سنقتصر على إيراد الآراء المؤثرة منهم والتي ينادى بها قادة الفكر القومى :

١ — يقول نبيه فارس بوجوب فصل الدين عن الدولة كمادة أولى في منهج الإصلاح .

« إن جل عوامل التفرقة التي ألمت بالعرب منذ ألف سنة ونصف ، تعود إلى أن الإسلام كنظام سياسى لم يفسح المجال لفكرة الوطن الواحد ، حيث يقف جميع رعايا الخليفة أو السلطان على قدم المساواة أمام القانون ، وتستوى حقوقهم الوطنية وواجباتهم . ولعدم توفر المجال لهذه الفكرة ، حاول غير المسلمين من الرعايا الإفلات من هذه القيود ، فنشأت

الشعوبيات المختلفة . غير أن الدواء الوحيد لهذه العلة لا يأتى بالتجاء غير المسلمين من العرب إلى نظام سياسى دينى يقابل الإسلام ، وإنما هو فصل الدين عن الدولة » .

وهذا الرأى فى نظرنا ظاهر الفساد ، لأنه ينقل عن الغرب نظرية الفصل بين الكنيسة والدولة دون أن يقف على مظاهر التباين وأوجه الاختلاف بين الإسلام والمسيحية الغربية . فالإسلام لا ينطوى على تنظيم دينى كالتنظيم الكنسي فى المسيحية حتى يمكن القول بوجوب الفصل بين هذا التنظيم والتنظيم الزمنى أى الدولة . إن الإسلام يتضمن بذاته أحكاما اعتقادية تترك لتقدير الفرد وخصوصية علاقته بالخالق سبحانه وتعالى ، وأحكاما اجتماعية أو قواعد للمعاملات . ولذلك يؤثر القول بأن الإسلام دين ودولة .

وفضلا عن ذلك فإن هذا الرأى يعكس واقع الحال فى بلد عربى وحيد حيث تقوم الحياة العامة — للأسف — على أساس التوزيع الطائفى ، أما الموقف فى سائر أجزاء العالم العربى فيختلف أساسا عن ذلك ، لأن المواطنين بقطع النظر عن لونهم العقيدى ، يرتبطون معا برباط التراث العربى ، ويعيشون معا على

عادات وتقاليد مشتركة تكون وحدة متماسكة لامجال فيها للتفرقة على أساس العقيدة الدينية .

٢ — ويذهب ساطع الحصرى إلى هذا الرأى نفسه فيقول عن القومية والدين فى أوروبا : « إن الوحدة القومية لم تتبع الأديان والمذاهب. لا وحدة والمذهب ضمن التغلب على الفروق القومية ، ولا اختلاف الدين والمذهب استطاع أن يحول دون تحقيق الوحدة القومية» ثم نراه يطبق هذا المعيار على «القومية العربية » فيقول رغم اعترافه بأن الإسلام كان القوة الدافعة لانتشار اللغة العربية المذكورة نوعا من المناعة ضد عوامل التفرع والتفتت ، إذا به يخلص إلى أن القومية العربية لا ترتبط بالإسلام لأنه قد تكونت أمم إسلامية غير عربية من ناحية ، وجماعات عربية غير مسلمة من ناحية أخرى .

٣ — ويسير عبد الرحمن البزاز فى ذات الاتجاه فيقول : «إنه لا يرى أن يكون الدين ركنا من أركان القومية العربية رغم مابين الإسلام والقومية العربية من صلات عميقة والتقاءات كلية » على أنه يضع تحفظات على ذلك فيقول : إن ذلك لا يعنى أن يعارض القومية أو أن إبعاد الدين عن حظيرة القومية يتضمن هجوما على الدين ، بل معنى ذلك — فى نظره — أن الأمة تبقى

أمة والقومية تبقى قومية (على الرغم من فقدان الرباط الدينى) .

وإذا أردنا تقرير هذا الاتجاه نجد أنفسنا مضطرين إلى طرحه وعدم الأخذ به . فليس القول بأن الإسلام يعتبر مقوما من مقومات الدعوة العربية ينطوى على خلط بين مجالين مختلفين هما الدين والقومية . وإنما نحن نأخذالإسلام بواقعه، وهو أنه لم يكن للعرب مجرد دين بالمعنى الضيق أى رسالة سماوية تتضمن تنظيمات لعلاقة الإنسان بربه : بل كان للعرب تاريخهم وحضارتهم وحافظ لغتهم ومشكل عاداتهم وتقاليدهم ، وبالجملة مميز مجتمعهم عن سائر المجتمعات .

والإسلام لا يطرح الأديان السماوية الأخرى ، بل يصر على أنه امتداد لرسالات موسى وعيسى . وفضلا عن ذلك فلغير المسلم حقوق المسلم فى الإسلام وتعتبر التسوية بينهما من الأحكام الاعتقادية للمسلم . يقول الله عز وجل :

« إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين ، من آمن بالله واليوم الآخر فلهم أجرهم عند ربهم، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » .

وقال العزيز الحكيم فى موضع آخر تعبيراً عن قرب المسيحى من المسلم :

« ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى . ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لايستكبرون » .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« من جار على ذمى فأنا خصيمه يوم القيامة ، ومن خاصمه خصمته » .

وإذن فغير المسلم فى الإسلام هو مواطن كامل له ما المسلم من حقوق وعليه ما على المسلم من واجبات . ويقول الفقيه ابن عابدين فى هذا المعنى :

« لهم مالنا من الإنصاف ، وعليهم ما علينا من الإنصاف ، نخرجت بذلك العبادات لأنهم لايخاطبون بها عندنا » .

فلايقدح فى وجود وحدة روحية بين العرب جميعاً الاعتراف بأن الإسلام كحضارة وكتراث هو من أهم مقومات الدعوة العربية ، لأنه لايتصور أن ينفصل عنها وقد شكل حياة العرب وقام مجتمعهم على أسسه ومبادئه .

ولا يصح لغير المسلم أن يجفل عند سماع هذه الحقيقة . فالإسلام كمقوم من مقومات الدعوة العربية لايعنى أن المسيحية ليست مقوما أيضا لأن الاثنين يدخلان فى تكوين وحدة روحية لاغنى للدعوة العربية عنها . هذه الوحدة الروحية لم يكن يتصور

قيامها بين الإسلام والهندوكية مثلا أو بين الإسلام والبوذية ، لأنه شتان ما بين الأسس التى تقوم عليها كل منهما . ففي كل من الإسلام والمسيحية إيمان بوجود خالق الوجود الإنسانى والخارجى وإيمان بوجود اليوم الآخر . وهذا وجود يكفى لضمان عدم التفرقة .

وفى هذا المعنى يقول الدكتور قسطنطين زريق :

« القومية الحقيقية لايمكن بحال من الأحوال أن تناقض الدين الصحيح ، إنها ليست ، فى جوهرها ، سوى حركة روحية ترمى إلى بعث قوى الأمة الداخلية ، وتحقيق قابليتها العقلية والنفسية ، فلا بد للقومية إذن وهى حركة روحية — من أن تلاقى الدين وأن تستمد منه القوة والحياة . كذلك فإن القومية العربية لاتعارض دينا من الأديان ولا تنافيه ، بل تقبل على الأديان جميعا . وإذا عارضت القومية شيئاً ، فليس هو الروحية الدينية وإنما هو العصبية الهدامة التى تجعل الرابطة الطائفية أقوى من الرابطة القومية ، وتأبى أن تذيب نفسها فى بوتقة الوطن الجامعة ، وأصحابها هم أعداء القومية العربية وهادمو وحدتها . أما الدين الصحيح ، فهو ينبع والقومية من معين واحد » .

* * *

ونخرج من كل ما تقدم إلى أنه لايمكن فصل الإسلام مع ما بينه وبين المسيحية من وحدة روحية عن حظيرة الدعوة العربية . فإن تعمد إقصاء الدين عن مجال القومية هو دعوة علمانية مقصودة لذاتها، لاخدمة للقومية، ولن تفضى إلا إلى إلحاد وضياع للقيم وتسويد لقيم الغرب التى تقوم على الإباحية والانحلال، ولاتفيد شيئاً فى إذكاء روح القومية وتقدمها والعمل على بلوغ أهدافها .

الاشتراك فى الفكر القانونى

قلنا إن الإسلام كان العامل الأكبر فى جمع شتات القبائل العربية وتكوينها تكوينا حضاريا واضح المعالم بحيث خرجت من هذه القبائل أمة متجانسة متماسكة تعرف أهدافها فى الحياة . وكان من أجل ما تركه هذا الدين للعرب شريعة صالحة لكل زمان ومكان تأسست على أصل من القرآن والسنة ، وارتفع بنيانها شاهقا بين الشرائع العالمية بفضل الفقهاء المسلمين الذين فرعوا عن الأصول بطريق القياس والاستحسان والاستصلاح والاستصحاب . .

وقد غدت الشريعة الإسلامية منذ أكثر من ثلاثة عشر قرنا ، أساس التشريع فى العالم العربى على اختلاف أقسامه وأمصاره . فكانت إلى عهد قريب هى القانون الذى تطبقه المحاكم القضائية فى مصر وغيرها من الدول فى (المسائل الجنائية والمدنية والتجارية ومسائل الأحوال الشخصية وشئون الضرائب . .

وإنه وإن كان قد طرأ بعض التغيير على البناء القانونى لبعض أجزاء هذا الوطن العربى بأن تغير القانون الواجب

التطبيق وصار قانونا غريبا معربا بدلا من الشريعة الإسلامية نتيجة تأثير الاستعمار الغربى على الشرق العربى، واقتصر سلطان هذه الشريعة على منازعات الأحوال الشخصية من زواج وطلاق ونفقة وحضانة وولاية على النفس والمال ، فإن الحقيقة لا تزال باقية، وهى أن هذه الشريعة قد صارت جزءا من الكيان العربى. ولا أدل على صحة ذلك من تطبيق أحكام هذه الشريعة على غير المسلمين فى بعض منازعاتهم كالميراث والوصية . .

وفضلا عن كل ذلك فلا يزال الفقه الإسلامى هو الواجب التطبيق بذاته فى المنازعات المدنية والتجارية والجنائية فى بعض أنحاء العالم العربى كالمملكة العربية السعودية واليمن . .

ولا شك أن هذا الاشتراك فى الفكر القانونى يشكل عاملا من عوامل تجانس المجتمع العربى وتميزه عن غيره من المجتمعات الإنسانية . .

وحدة الأرض

تعتبر الوحدة الجغرافية عاملا هاماً من عوامل بناء الأمم، فقد كانت العامل الوحيد الذى بنيت عليه قوميات معاصرة كالقومية الأمريكية .

والحقيقة الواضحة — أيا كانت أهمية العامل الجغرافى — هى أنه لا قومية بغير أرض، ولا أمة دون وطن محدد المعالم واضح الحدود . فالتعايش المشترك على أرض معينة ولمدة طويلة هو أحد خصائص القومية .

والمقصود بالوحدة الجغرافية هو أن تكون البقعة من الأرض التى يسكنها مجموع سكان الأمة متصلة لا يفصل بينها فواصل طبيعية كبيرة من بحار واسعة أو جبال عالية . على أنه لا يشترط بعد ذلك أن تكون هذه البقعة من الأرض متحدة فى صفاتها الجغرافية من حيث تضاريسها ومناخها .

فوحدة الأرض تخلق تشابهاً فى العادات والأخلاق والثقافة والاقتصاديات ، كما أن التجاور المكانى من شأنه أن يخلق مودة وتعاطفا ، ويساعد على بقاء الأمة متماسكة ويدفع بأبنائها إلى الانتظام فى سلك وحدة سياسية واحدة .

إن العالم العربى يمتد على رقعة من الأرض عبر القارتين الآسيوية والإفريقية، وله حدود طبيعية واضحة كما ذكرنا آنفا، كما تنعدم فيه الفواصل أو الحواجز العنيفة من صحارى وجبال وبحار تعتبر عائقا دون وحدة الأمة.

إن هذه الحدود السياسية المصطنعة التى أقامها الغرب لتفصل بين أجزاء وطننا العربى، لا يمكن أن تغير من تكوينه الطبيعى فتحيله إلى وحدات جغرافية متعددة..

ثم إن قيام إسرائيل الصهيونية فى قلب الوطن العربى لايخل بالوحدة الجغرافية الواضحة للعالم العربى الذى يحيط بها من كل جانب، لأنه فضلا عما يتسم به وضعها من تأقيت فهى لاتحول دون اتصال أجزاء الوطن العربى بعضها بالبعض الآخر جغرافيا.

وحدة الجنس

رغم أننا نسلم بعدم وجود دولة من الدول أو أمة من الأمم أفرادها خالصو الدم، أى ينتسبون إلى جنس واحد أو إلى سلالة واحدة . فإن توافر وحدة الجنس فى أفراد أى مجتمع من شأنه أن يزيد من تقاربهم ، وأن يضيف إلى مقومات وحدتهم عنصراً هاما .

والأمة العربية تجمع إلى جانب كل المقومات التى أسلفنا الكلام عنها ، الوحدة فى الجنس . ويحاول بعض كتاب الغرب أن ينكروا صفة العروبة عن سكان مصر بدعوى أنهم من سلالة الفراعنة الأقدمين لا من سلالة الجنس السامى العربى الذى هاجر من جزيرة العرب إلى سائر أجزاء الوطن العربى كالعراق وسوريا، وحافظ فى معظم فترات التاريخ وبالنسبة لجزء كبير منه على عيشته القبلية وأخلاقه وتقاليده العربية .

وردا على هؤلاء المغرضين نسوق ما قاله الأمير مصطفى الشهابى تدليلا على عروبة مصر :

« ولنبدأ بمصر . فالمصريون الأقدمون الذين كانوا يعيشون فى زمن الفراعنة يمتون إلى الأرومة السامية أى العربية التى مهدها

جزيرة العرب ، وقد حلوا مصر إثر موجة بشرية امتدت من كلدية إلى سق النيل».

قال المؤرخ الشهير مسبيرو : «إن لأصول المصريين الأقدمين والعرب والفينيقين والكنعانيين روابط تربط بعضهم إلى بعض ، وليس المصريون الأقدمون غير ساميين انفصلوا عن مهد الساميين قبل غيرهم » .

«وإذا ألقينا نظرة على أخواننا المصريين فى زمننا الحاضر ، نجدهم من حيث الدين مسلمين أو أقباطا ، فالمسلمون هم الكثرة ، وهم إما من أنسال المصريين الأقدمين ، وإما من أنسال قبائل عربية دخلت مصر منذ الفتح الإسلامى وقبله فتحضر بعضها وسكن المدن والقرى ولبث بعضها يعيش عيشة قبلية ، وإما مزيج من المصريين القدماء ومن القبائل العربية المتحضرة ، اختلطت دماؤهم بالمصاهرة على طول الزمن فتألف الشعب المصرى الحاضر من هذا النماذج ، وفى هذه الحالات الثلاث تكون دماء المصريين سامية ، لأن الأسر التركية والشركسية والكردية الأصول التى سكنت مصر فى أزمان مختلفة كانت قليلة العدد لا تأثير يذكر لدمائها فى دماء المصريين ».

« وأما القسم الثانى من المصريين أى الأقباط فهم كما أشرت

إليه ساميون يمتون إلى أجيال هاجرت من عربة فى فجر التاريخ، ولا دليل على أن دماءهم اختلطت اختلاطا يذكر بدماء غير سامية ، وقد جددوا عروبتهم عقب الفتح الإسلامى ، واقتبسوا العربية المضربة،وأصبحوا هم ومسلمو مصر شعبا عربيا واحدا.»

وكذلك فإن سكان الأقطار العربية فى شمال إفريقية إما عرب أو بربر . ومن الثابت أن البربرساميون أى من عرب الجزيرة الأقدمين ، فمحاولةإرجاع أصل البربر إلى الجنس الآرى لا يقوم عليه دليل ، وهى محاولات لاترمى إلا إلى إبعاد البربر عن العرب لإضعاف وحدة الوطن العربى وتمزيق شمله حتى يتم التحكم فيه واستعمار أهله وخيراته .

فإذا كان مسلما أن سكان باقى أجزاء الوطن العربى هم عرب من جنس سامى ، استقام ما يذهب إليه علماء الأجناس من وحدة الجنس فى العالم العربى .

هذه هى أهم المقومات والعوامل التى نرى أنها تجعل من المجتمع العربى مجتمعا متجانسا وتبقى بعد ذلك عناصر أخرى كالوحدة فى الخصائص الاجتماعية والاقتصادية ، نرى إرجاء التعرض لها فى هذا المجال ، لأننا نرى أنها لا تقف فى مكان الصدارة من المقومات التى يتميز بها المجتمع العربى عن سائر المجتمعات .

ظهور فكرة القومية العربية

« إن الأمة العربية لم تعد في حاجة إلى أن تثبت حقيقة الوحدة بين شعوبها ، لقد تجاوزت الوحدة هذه المرحلة ، وأصبحت حقيقة الوجود العربي ذاته » .

(الميثاق الوطني)

نحو نظرية عامة للقومية

القومية هي الشعور الذى يقوم لدى جماعة معينـــة بوجود ترابط بينهم مؤسس على جملة مقومات من لغوية وتاريخية وحضارية بحيث يهبون لتكوين وحدة سياسية مستقلة بهم هي الدولة . وإذن فالقومية هي نزعة اجتماعية وسياسية فى وقت واحد تتبلور فى شعور أبناء مجتمع واحد بأنهم لتجانسهم يكونون أمة واحدة مهما تناثروا فى أقاليم مختلفة ، وأن من حق هذه الأمة أن تنتظم فى إطار قومى ينفرد بصفات لا تتوافر فى الأمم الأخرى وبالتالى أن يكون لها تشكل سياسى متميز .

وللشعور بالقومية حـــديث لا يرجع فى صورته الراهنة إلى أبعد من القرن الثامن عشر . فقد كان مفهوم الدولة قبل ذلك مرتبطاً بمفهوم الملكية وريثة عهد أمراء الإقطاع . وبالتالى لم تكن وحدة الدولة ترتبط بوحدة الأمة وإنما كانت تتمثل فى شخص الملك القابض على زمام الحكم بصورة مطلقة تأسيسا على نظرية الحق الإلهى الذى سند سلطة ملوك أوربا فترة طويلة من الزمان . وتعبيراً عن ذلك كله أثر عن لويس السابع عشر ملك فرنسا أنه قال : « الدولة هي أنا » .

وكان لهؤلاء الملوك بالتالى حق التصرف بصورة مطلقة فى شئون مملكتهم ، ولم يكن يعترف لأفراد الشعب بحقوق منفصلة عما كان الملك يتنازل فيعطيه لهم .

وكانت المقاطعات تخضع لأنظمة التوارث وفقاً لما كان سائداً فى العصور الوسطى تبعاً لأهواء الملوك ورغباتهم ، بل كانت الممالك تتوسع أو تتقلص تبعاً لظروف المصالح الملكية من زواج ووفاة وتوارث .

وطبيعى أن هذه الأحوال الاجتماعية والسياسية لم تكن من وضع رجال القانون ، بل كانت من آثار الماضى ومن نتائج الوقائع التاريخية والمعتقدات الدينية التى سادت فى أوروبا منذ قرون عديدة ، أهمها أن الملك يتلقى حق الحكم بتفويض من الله فكانت طاعته واجبة لأنها طاعة للإله .

وكان أن قامت الثورة الفرنسية فى سنة ١٧٨٩ تأثراً بكتابات كثير من المفكرين والفلاسفة أمثال مونتسكيو وفولتير وجان جاك روسو الذى وضع كتابا اسمه « العقد الاجتماعى » وجون لوك الفيلسوف السياسى الإنجليزى الذى أبرز عناصر نظرية العقد الاجتماعى من الجانب الذى يؤكد حق الشعب وحده فى السيادة وفى عزل حكامه إذا تجاوزوا حدود العقد الاجتماعى .

كل هذا فضلا عن حركة الانشقاق البروتستانتى التى لم تقتصر على كونها حركة دينية، بل تعدت ذلك إلى إبراز كثير من الأفكار السياسية . وأسفرت هذه الثورة عن إعلان حقوق الإنسان الذى جاء مبرزا تلك المفاهيم المقررة للحرية والتى سبق أن تقررت فى انجلترا فى العهد الأعظم سنة ١٧١٥ وفى وثيقة الحقوق سنة ١٦٨٨ . وفى ذات الوقت كان العالم الجديد (أمريكا) ثائراً من أجل استقلاله ، وقد تم توقيع وثيقة الاستقلال فى مؤتمر فيلاديفيا سنة ١٧٧٦ وصدقت عليها بريطانيا فى معاهدة باريس سنة ١٧٨١ ، وأصبحت هذه الوثيقة واحدة من أهم الوثائق التاريخية التى تؤكد حق السيادة الشعبية ، وصارت هى الأساس الجديد لفلسفة المذهب الحر ونظرية القانون الطبيعى التى سادت فى الدستور الأمريكى .

وترتب على كل هذه الأفكار السياسية والحوادث الثورية مضافاً إليها العامل الاقتصادى الذى كان قد سيطر على أوروبا فى ذلك الوقت إيقاظ الإحساس لدى الشعوب بكيانها القومى فنهضت تطالب بحق الحرية وحق تقرير مصيرها السياسى ، ومن هنا ظهرت فى أوائل القرن التاسع عشر حركة القوميات التى غيرت من خريطة أوربا تغييرا شاملا . فقد كانت الدول الأوربية

القائمة فى ذلك الوقت مؤسسة على قواعد تختلف عن مقتضيات « مبدأ القوميات » اختلافا كبيراً : إذ كانت هناك دول كثيرة تحكم كل واحدة منها أمما عديدة ، كما كانت هناك أمم موزعة كل منها على دول كثيرة ..

وقد أفلحت هذه الحركة فى إنجاز الوحدة القومية لعديد من الدول الحديثة مثل ألمانيا وإيطاليا والبلقان ..

ولا نريد الخوض فى تفصيلات هذه الحركات القومية المختلفة فى قارة أوروبا ، ولكننا سوف نتعرض فيما يلى لاختلاف مفهوم القومية ذاتها فى عديد من الدول الأوروبية :

مفهوم القومية :

قام الخلاف حول مفهوم القومية ، فبينما يرى علماء الاجتماع أنها ظاهرة اجتماعية مؤسسة على قواعد علمية تحكم تصرفات البشر وتطور حياتهم ، إذا هى عند الفلاسفة مذهب أخلاقى ، وعند رجال السياسة حركة سياسية قوامها جمع أفراد الأمة على نضال واحد من أجل العمل على تحقيق هدف مشترك ، هو تبلور الأمة فى حقيقة سياسية واحدة . ويقيم هؤلاء الآخرون نظرياتهم فى القومية على روابط يختلف بعضها عن بعض ، فبينما يعول

بعضهم على رابطة اللغة يرى البعض الآخر أن الأساس يكمن في الرغبة في المعيشة المشتركة في حين أن فريقا ثالثا يرى التعويل على المصالح ..

أولا — النظرية الألمانية أو نظرية اللغة :

تقوم النظرية الألمانية التى ازدهرت في النصف الأخير من القرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر على اللغة كأساس أول للقومية . فقد كانت ألمانيا منقسمة إلى أكثر من مائتى وحدة سياسية (حوالى ٣٦٠) ثم أخذ العدد يتناقص حتى وصل إلى ٢٥ في سنة ١٨٧١ وكونت هذه الوحدات في هذه السنة اتحادا فيدراليا تركزت فيه كل السلطات العسكرية والخارجية في الدويلات المكونة له . ثم نقص عدد هذه الوحدات السياسية فصار ١٧ في سنة ١٩١٨ إلى أن زالت هذه الوحدات القليلة من الوجود في سنة ١٩٢٣ ليحل مكانها الدولة الألمانية الموحدة (الريخ الألمانى) ..

وقد كانت هذه التحولات المستمرة في الدويلات الألمانية راجعة إلى نشوء الفكرة القومية التى تغلبت على فكرة الدولة التى تتحد في شخصيتها مع شخصية الملك ..

وتعتمد هذه النظرية الألمانية على فلسفة هيجل التى تقوم على فكرة أساسية هى : أن الأمة وليس الفرد أو آية مجموعة من الأفراد هى نقطة الارتكاز فى أطوار التاريخ المختلفة . فبالرغم من أن روح الأمة هى جماع إرادات أفرادها إلا أنها تنفصل عنهم فتكون كائنا عضويا قائماً بذاته يجب النظر إليه باعتباره خالق الفن والقانون والآداب العامة . وتعرض هيجل لضعف الإمبراطورية الألمانية فعزا ذلك إلى تمزقها إلى وحدات إقليمية متميزة. فالألمان فى نظره يكونون كتلة حضارية واحدة ولكنهم لم يلقنوا دروس الوطنية التى تحتم خضوع كل منهم للمجموع الذى هو العنصر الجوهرى فى الحكومة الوطنية . .

وقد عول مفكرو ألمانيا على اللغة وحدها — كما قلنا — كأساس من أسس القومية . ومن أشهر من دعا إلى اللغة من هؤلاء المفكرين الفيلسوف هردر الذى قال إن اللغة القومية هى الوعاء الذى تتشكل فيه وتنتقل بواسطته أفكار الشعب . وجاء بعده الفيلسوف فيختته (١٨٦٢ — ١٨١٤) الذى عاصر أيام التسلط النابليونى التى عاناها الشعب الألمانى وكان يبحث بوجه خاص فى « مهمة رجال الفكر فى المجتمع » واضطهد من رجال الدين الذى اعتقد أنه يدعو إلى دين جديد ، إذ كان

يجتمع مع الطلاب أيام الآحاد ليتحدث إليهم فى هذا الموضوع الذى كرس له حياته ، وهو إنهاض الأمة الألمانية من كبوتها . فكان فيختته لا يعرف حدوداً لألمانيا غير الألمانية ، وكان من الداعين إلى عرضية الفروق التى تشاهد بين البروسيين وغيرهم من الألمان ، فى حين أن ما يفرق بين الألمان فى مجموعهم وبين غيرهم من الأمم فروق طبيعية جوهرية تكمن فى اختلاف اللغات الذى يعبر عن أفكار متميزة وحضارات منفصلة .

ويعتبر من طليعة المفكرين الألمان كذلك الكاتب ماكس نوردو الذى أكد دور اللغة فى خلق الشعور لدى الفرد بأنه عضو فى المجتمع ، وأضاف أن باللغة يتلقى الفرد كل تراث الأمة الفكرى والشعورى والأخلاقى والاجتماعى ..

ولذلك تعتبر القومية فى نظر المفكرين الألمان شيئاً طبيعيا من صنع الطبيعة ذاتها وليست شيئاً إراديا من صنع الإنسان .

تقدير هذه النظرية :

هاجم الفقهاء الفرنسيون النظرية الألمانية ، لما رأوا فيها من خطر على مصالحهم السياسية . ويمكن تلخيص الانتقادات التى وجهت إليها فى أمرين أساسيين :

(ا) إن المشاهد فى بعض الدول مثل سويسرا وبلجيكا أنها تجمع أشخاصاً يتكلمون لغات مختلفة ومع ذلك فإنها تمثل وحدات سياسية متماسكة، فى حين أنه توجد دول انفصلت بعضها عن البعض بالرغم من وحدة لغاتها مثل دول أمريكا اللاتينية بل والشمالية. وهاتان الظاهرتان تدلان على أن القومية لا ترتبط باللغة..

(ب) إن فى الإنسان شيئاً أهم من اللغة وهو العاطفة والمشيئة. فاللغة بجوارها تعتبر عاملا ثانويا من عوامل تكوين الأمم.

وأول ما يلاحظ على الوجه الأول من أوجه الانتقادات الموجه إلى هذه النظرية، أنه ينطوى على خلط بين مفهوم الدولة والأمة. فبلجيكا وسويسرا ليستا أمتين بل دولتين تضم كل منهما جماعات من قوميات مختلفة اضطرتها ظروف جغرافية وتاريخية وسياسية واقتصادية إلى التعايش تحت راية واحدة. وعلى ذلك فليس من المنطق فى شىء الاستناد إلى هذين المثلين لإهدار قيمة اللغة فى تكوين الأمة. وكذلك فإن دول الأمريكتين تكونت فى ظروف جغرافية وتاريخية واجتماعية شاذة إذ انفصلت عن الدول الأوروبية بواسطة المحيط الأطلسى. كما أن غالبية سكانها تتألف من المهاجرين الذين نقلوا إليها

لغاتهم ونزعاتهم المختلفة فصارت القارتان الأمريكيتان بمثابة أوعية اختلطت فيهما وامتزجت مختلف القوميات بنسب غير منتظمة بل متفاوتة ..

أما الوجه الثانى من أوجه النقد فهو موضوع النظرية التى سنتكلم عنها فيما بعد .

ومهما قيل فى شأن اللغة فلا شك أنها من أهم عوامل القومية إذ هى الجسر الذى تعبر عليه أفكار الشعوب وتصطبغ بها آمال الأمم . فيرجع إلى هذه النظرية الفضل فى تكوين القوميات الحديثة فى أوروبا وعلى أساسها تغيرت الخريطة الأوروبية تغييراً أصلياً .

ثانياً : النظرية الفرنسية أو نظرية المشيئة :

أبرز من قال بهذه النظرية الفقيه الفرنسى «أرنست رينان» الذى ألقى محاضرته المشهورة « ماهى القومية » بجامعة السوربون سنة ١٨٨٢ استعرض فيها كل ما كتب عن ماهية الأمة والعناصر المؤثرة فى تكوينها ، ثم انتقد كل النظريات التى قيلت فى ذلك ، وانتهى إلى أن العنصر الجوهرى فى القومية هو الإرادة والمشيئة

وأسس على ذلك تعريفه للأمة بأنها « جماعة من الناس اتفقت مشيئتهم على المعيشة المشتركة » .

وقد كانت مشكلة الألزاس هى السبب فى قيام هذه النظرية كرد فعل ضد النظرية الألمانية . فقد أرادت فرنسا أن تتوسع فى الشمال والشمال الشرقى وأن تعتبر نهر الراين حداً إقليمياً لها . ولما كان سكان تلك المناطق يتكلمون الألمانية رغم أن فرنسا كانت تحكم الألزاس منذ معاهدة وستفاليا سنة ١٦٤٨ فقد خشيت أن تؤدى نظرية اللغة (النظرية الألمانية) إلى أن يعتبر سكان الألزاس أنفسهم ألماناً ، ولذلك فقد انبرى كثير من الكتاب الفرنسيين لهذه النظرية بالتفنيد ، فقال فوستيل دى كولانج أحد الكتاب الفرنسيين فى ذلك :

« إن القومية لا تتبع اللغة . وإنما الوطن هو ما يحبه المرء . وقد يكون الألزاسيون آلمانا باللغة ، ولكنهم فرنسيون بالنزعة والمعيشة . وأن القومية إنما تتعين بالرغبة والمشيئة والعدالة تقضى بمراعاة مشيئة الألزاسيين وتحقق رغباتهم » .

تقدير هذه النظرية :

وأهم ما يوجه إلى هذه النظرية من نقد هو أنها تنطوى

على مغالطة منطقية ، فالرغبة فى المعيشة المشتركة لا يمكن إلا أن تكون نتيجة من نتائج القومية لا سببا لوجودها . وفضلا عن ذلك ، فإنه على فرض أن مشيئة المعيشة المشتركة هى التى تحدد القومية فإن هذه النظرية لا تحدد لنا أسباب تولد هذه المشيئة . فالذى يستسيغه المنطق أن الشعوب تميل إلى الاندماج فى أمة واحدة بفضل توافر مقومات مشتركة بينها تقرب بين بعضها البعض وتجعل أمر المعيشة المشتركة مرغوباً فيه .

ومن ناحية أخرى فإن التاريخ يشهدنا على أن شعوباً أظهرت رغبتها فى المعيشة مع شعوب أخرى أو فى الانفصال عنها ، ومع ذلك فقد تحتم عليها أن تذعن وتخضع لغير ما ترغب فيه بسبب توافر مقومات أخرى أشد تأثيراً من مجرد هذه الرغبة . وأصدق مثل لذلك ، هو الحرب الأهلية التى دارت بين الولايات الأمريكية الجنوبية واتحاد الولايات الشمالية . إذ أظهرت الأولى رغبتها الصادقة فى عدم الاتحاد مع الولايات الشمالية والاكتفاء بالتعاهد معها ، ومع ذلك فقد تغلبت عناصر الاتحاد لتوافر مقومات الأمة بين المعسكرين التى فرضت نفسها على المشيئة التى أفصحت عنها ولايات الجنوب .

ثالثاً : النظرية الماركسية أو نظرية المصالح الاقتصادية :

تقوم الفلسفة الماركسية على التفسير المادى للتاريخ . فالدين بوصفه قوة روحية كان فى نظرهم هو المضلل الأكبر للشعوب فاستبدلوا به المادة أو المصلحة الاقتصادية . وهذه المصلحة يجب مراعاتها طبقاً لفلسفة كارل ماركس فى الطبقة الكادحة التى طال استغلال الرأسماليين لها ، ولذلك فإن حتمية التاريخ ستؤدى — فى نظر الشيوعية — إلى اشتداد حدة الصراع بين البلوريتاريا والبورجوازية مما سيؤدى إلى الثورة وانهيار الرأسمالية فى جميع بقاع الأرض وتحرر العمال فى كل مكان .

فالماركسية لا تؤمن بالقوميات لأنهـا لا تؤمن بالحدود والفواصل التى تقف حائلا دون تحرر العمال فى كل مكان ، ولذلك انتقد الكتاب الشيوعيون حركة القوميات التى سادت أوروبا فى القرن التاسع عشر ولقبوها «بالقومية البورجوازية» بل إن لينين وستالين اعتبرا أن الأمم العصرية ليست إلا وليدة عهد الرأسمالية. وقد قال ستالين صراحة فى ذلك : « إن الأمم (أى القوميات) لم توجد ، ولا كان بالإمكان أن توجد قبل عهد الرأسمالية ،أى قبل

وجود الأسواق القومية ، والمراكز الاقتصادية القومية والثقافية .. » .

وظاهر أن هذه النظرية لاتصلح تفسيراً للقومية بالمعنى الذى نقصده ، بل هى تهدف إلى هدمها لتكوين دولة عالمية جوهرها المصالح الاقتصادية لطبقة العمال . ولهذا أوردناها ضمن النظريات التى تهدف إلى تحديد مفهوم القومية.

نشوء فكرة القومية العربية

كانت الدولة العثمانية قد فرضت سلطانها فى يسر على أجزاء الوطن العربى المختلفة منذ القرن السادس عشر تقريبا باستثناء المغرب الأقصى من جهة ، وحضرموت مع قلب الجزيرة العربية من جهة أخرى . وقد رسخت أقدام هذه الدولة فى الوطن العربى لأنها كانت دولة إسلامية وكان سلاطينها قد اتخذوا لقب الخليفة فدان لهم العرب المسلمون . ولم تشذ عن هذه الحالة العامة إلا بلاد اليمن التى ظلت فى حروب مستمرة مع الدولة العثمانية تخللتها بعض فترات الهدوء والهدنة ..

وفى القرن التاسع عشر حدث فى البلاد العربية حادثان كان لهما أثرهما على كيان الدولة العثمانية : الأول هو ثورة الوهابين فى نجد والثانى هو ثورة محمد على فى مصر . أما الثورة الأولى فقد كانت ثورة دينية فلم تؤثر فى فكرة القومية العربية تأثيرا مباشرا . وأما الثورة الثانية فلو أنها لم تكن تستمد قوتها من نزعة عربية قومية إلا أنها خدمت هذه القومية خدمة جليلة ، لأنها أفسحت المجال لنشوء دولة عربية عصرية قوية فى هذه المنطقة ، وكان لنشوء هذه الدولة أثر فعال فى قيام النهضة الفكرية والأدبية فى مصر ..

ولأن الدولة العثمانية كانت دولة إسلامية اتخذ سلطانها لنفسه لقب خليفة المسلمين ، فقد رضى العرب بصفة عامة بالحكم العثمانى بوصفه امتدادا للخلافة الإسلامية . إلا أن الدولة العثمانية أبقت العالم العربى فى عزلة تامة عن التطورات الفكرية والسياسية بحيث إنه تخلف عن ركب الحضارة التى كانت تسود أوروبا منذ عصر الثورة الصناعية حتى عهد الثورة الفرنسية . .

ويقول الأستاذ ساطع الحصرى : «إن العرب المسيحيين كانوا يعيشون على هامش الحياة العثمانية لأنهم ، فضلا عن إهمالهم من جانب الدولة شأنهم فى ذلك شأن العرب المسلمين ، كانوا يتجاوزون ذلك إلى أنهم لا تجمعهم والعثمانيين رابطة الدين ، وهى الرابطة الوحيدة التى كان يحس بها العرب المسلمون تجاه حكامهم من العثمانيين . ولذلك فقد كان العرب المسيحيون يعيشون أغرابا فى بلادهم وهذا يفسر تعاطفهم مع الغربيين والبلاد الغربية وتأثرهم بحضارتها أكثر مما تأثر بها العرب المسلمون . ولهذه الأسباب . . . كان من الطبيعى أن تنشأ فكرة القومية العربية عند المسلمين على أنماط تختلف عن أنماط نشأتها بين المسيحيين ، كما أنه كان من الطبيعى أن تمضى مدة من الزمن قبل أن تتقارب هذه الأنماط ، وتنتهى إلى شكل

يشترك ويتساوى أمامه المسلمون والمسيحيون على حد سواء »

على أننا نرى بوجه عام أن ثلاثة عوامل أثرت فى إيقاظ الشعور القومى عند العرب . وأول هذه العوامل كان ما بعثه الغرب من أفكار جديدة فى أذهان المفكرين العرب مع الحملة الفرنسية وما صحبها من تطور شامل ، نتيجة إدخال المطبعة لأول مرة فى مصر فى أواخر القرن الثامن عشر ، والعامل الثانى هو الأثر الذى أحدثته مدارس الإرساليات الأوروبية والأمريكية ، إذ تعلم فى هذه المدارس شباب من العرب صار منهم فيما بعد قادة الفكر والرأى والسياسية فى العالم العربى . وقد ساعد هذين العاملين عامل ثالث هو استبداد الأتراك الذى وصل إلى أوجه فى أوائل القرن العشرين والذى كان منه تجاهل العثمانيين للوعود التى قطعوها على أنفسهم للعرب ، والتى كان من مقتضاها احترام قرارات المؤتمر العربى الأول الذى انعقد فى باريس سنة ١٩٦٣ ..

وقد بدأ البعث العربى الحديث فى صورة نهضة أدبية قصد منها إحياء اللغة العربية والتاريخ العربى . وقد تكونت أندية أدبية فى منتصف القرن التاسع عشر على أيدى العرب المسيحيين ثم انضم إلى عضويتها بعد ذلك عرب مسلمون . .

وبذلك كانت عضوية هذه المنتديات بمثابة أول رابطة قومية

تجمع بين العرب من جميع الأديان . ويقول ساطع الحصرى ، إن ذلك أصبح حقيقة واقعة بعد أن عرف المتعلمون من العرب المسيحيين من كتب التاريخ الغربية ، أن التاريخ العربى ليس تاريخ العرب المسلمين وحدهم بل تاريخهم هم أيضا . .

وقد كان انتشار فكرة القومية العربية عند المفكرين المسيحيين بطيئا بعض الشيء لأن مطامع المستعمرين الغربيين دائما تزكى روح التعصب الدينى بين المسيحيين والمسلمين من العرب . .

الجمعيات السياسية :

ويرى انطونيوس : أن الحركة الوطنية بدأ تنظيمها فى سنة ١٨٧٥ عندما ألف خمسة من العرب المسيحيين جمعية سرية فى بيروت ازداد عدد أعضائها بعد ذلك إلى اثنين وعشرين ينتمون إلى مختلف الطوائف الدينية ويمثلون النخبة الممتازة من المثقفين . وقد دأب أعضاء هذه الجمعية على توزيع بعض المنشورات والملصقات التى تحض على مقاومة الاستبداد العثمانى فى مختلف المدن السورية . وبرغم أنهم ساهموا مساهمة فعالة فى إيقاظ الشعور القومى العربى ، إلا أنهم كانوا لا يزالون فى

مركز لا يمكنهم من اتخاذ موقف سافر فى وجه الحكم التركى ، لذلك وإزاء اضطهادهم وتعقب السلطات التركية لهم ، فروا إلى مصر وإلى أوروبا الغربية حيث بدأوا مرحلة ثانية من مراحل الجهاد القومى . .

والجمعية السياسية الثانية هى « حزب الوطن العربى » الذى تألف فى باريس سنة ١٨٩٥ . ويرجع إلى هذا الحزب الفضل فى إثارة الشعور القومى وبعث التفكير فى قومية عربية ، إذ سادت دعاياته بطريقة سرية منتظمة كانت سببا فى قيام الثورات فى أجزاء مختلفة من الوطن العربى مثل الحجاز واليمن فى سنة ١٩٠٥ . وقد كان لهذه الثورات الفضل فى لفت أنظار العالم إلى « المسألة العربية » . .

وعقب إعلان الدستور وبدء الحياة النيابية فى الدولة العثمانية سنة ١٩٠٨ تحت ضغط الرأى العام تكونت جمعية جديدة تسمى « جمعية الإخاء العربى العثمانى » كان هدفها حماية الدستور الجديد ، وتوحيد كل الجماعات العثمانية دون اعتبار للجنس أو الطائفة الدينية . ومن ناحية أخرى فقد ركزت هذه الجمعية جهودها على الأمة العربية بقصد تحسين الأحوال فيها بتبنى ما يمكن أن يلقب بالبرنامج الاجتماعى والاقتصادى الأول .

وطبقا لنظام هذه الجمعية اقتصرت العضوية على العرب . وقد عرف العربى فى ذلك الوقت بأنه « كل من ينتمى إلى العرب بنشأته أو بموطنه » . .

وكان من أول الخلافات السياسية بين العرب والأتراك الخلاف حول المركزية واللامركزية فى الدولة العثمانية، فقد تألف فى مصر فى سنة ١٩١٢ حزب اللامركزية العثمانى من سوريين كانوا متوطنين بمصر ومنها امتد نشاطه إلى سائر الأقاليم العثمانية . وكان أهم هدف سعى هذا الحزب إلى تحقيقه هو مباشرة الضغط على الحكام الأتراك لإقرار نظام لامركزية الإدارة فى الإمبراطورية وتعبئة شعور العرب لمساندة هذا النظام .

وكان أول ما اصطدم به أعضاء هذا الحزب هو نشوب حرب البلقان وخوفهم من تقسيم الأقاليم العربية نتيجة تقسيم البلقان . وقد كان لهذا الخوف ما يبرره ، إذ بدأت أطماع الغرب وخاصة فرنسا تظهر للعيان ، ومن ناحية أخرى ، فقد فشلت الحكومة العثمانية المركزية فى الدفاع عن طرابلس الغرب التى تمكنت إيطاليا من الاستيلاء عليها سنة ١٩١٢ . وقد زاد ذلك ولا شك فى نقمة العرب على الأتراك .

إلا أن الحزب ظل قائما محافظاً على نشاطه. وعلى الصلات

القائمة بين فروعه المختلفة وبين الجمعيات السياسية العربية الأخرى في سوريا والعراق حتى صار هذا الحزب أقدر متكلم بلسان العرب بالنسبة لأهدافهم السياسية .

وفي سنة ١٩١١ كون سبعة من الطلاب العرب الذين كانوا يدرسون في باريس جمعية أطلق عليها اسم الجمعية العربية الفتاة : «كان هدفها العمل على تحسين حال وتقدم الأمة العربية». وفي خطاب مؤرخ في ١٣ أبريل سنة ١٩١٣ إلى اللجنة العليا لحزب اللامركزية اقترح مؤسسو جمعية الفتاة عقد مؤتمر عربي في باريس لمناقشة الحياة الوطنية ومقاومة الاحتلال وحقوق العرب في الدولة العثمانية» ووجه أعضاء جمعية الفتاة نداء : «إلى ممثلي العالم العربي للاجتماع وتقرير أن اللامركزية في الدولة العثمانية ، تكون أساس الحكم ، وأن العرب شركاء في هذه المملكة ، شركاء في الخدمة العسكرية وشركاء في الإدارة وفي السياسة . على أنهم في بلادهم ليسوا شركاء أحد».

ومن الجمعيات الهامة التي ظهرت في تلك الحقبة من الزمان جمعية الإصلاح التي تكونت في بيروت في ديسمبر ١٩١٢ وكان قوامها ٨٦ عضواً من مختلف الطوائف العربية . وكان هدف هذه اللجنة هو الحصول على استقلال ذاتي للأقاليم العربية

فى الدول العثمانية وأن تعترف الحكومة بأن اللغة العربية هى اللغة الرسمية ، وأن تحصل المناقشات بها فى المجلس النيابى على قدم المساواة مع اللغة التركية . على أن الحكومة العثمانية استشعرت خطورة هذه الجمعية فقررت إلغاءها فى ٨ أبريل سنة ١٩١٣ . ومع ذلك فقد تمكن زعماؤها من حضور المؤتمر العربى الأول فى باريس .

فى خلال هذه الفترة كلها ومنذ سنة ١٨٨٢ على سبيل التحديد ، كانت مصر قد وقعت فى براثن الاحتلال الإنجليزى .

المؤتمر العربى الأول

انعقد المؤتمر العربى الأول فى باريس فى ١٨ يونية سنة ١٩١٣ بناء على الفكرة التى دعا إليها مؤسسو جمعية الفتاة . وحضر هذا المؤتمر ممثلو الأحزاب العربية والجمعات السياسية فى العراق وسوريا والمهجر . ورأس هذا المؤتمر أعضاء حزب اللامركزية : واستمر انعقاده لمدة ستة أيام وكان نصف أعضائه العرب من المسلمين والنصف الآخر من المسيحيين .

وقد ألقيت خطب عديدة جرت بعد كل منها بعض المناقشات ثم اتخذت عدة قرارات أهمها ما يلى :

١ — ضرورة إجراء إصلاحات أساسية فى الدولة العثمانية على وجه السرعة .

٢ — مشاركة العرب مشاركة فعالة فى الإدارة المركزية للمملكة .

٣ — إقامة إدارة لا مركزية فى الولايات العربية كل بما يناسب حاجاتها وصلاحيتها .

٤ — اعتبار الخدمة العسكرية محلية فى الولايات العربية إلا فى الأحوال الاستثنائية .

٥ — اعتماد اللغة العربية كلغة رسمية فى البرلمان العثمانى والولايات العربية .

ويلاحظ أن هذا المؤتمر لم يناد فى قراراته بالاستقلال ، بل نادى بالإصلاح داخل إطار الدولة العثمانية ، على أنه إذا لم يتحقق الإصلاح فلم يكن يتوقع من العرب أن يقفوا مكتوفى الأيدى .

ومن النقاط الهامة التى تثير الاهتمام عن هذا المؤتمر :

أنه بينما دعا الخطباء فى المؤتمر إلى ضرورة الأخذ عن الغرب الذى قطع مسافات طويلة فى طريق الحضارة ، فإنهم نبهوا الأذهان إلى خطر الجشع الاستعمارى الذى يتركز فى فرنسا

وبريطانيا اللتين قد تقدمان على احتلال البلاد العربية بحجة حمايتها من الدولة العثمانية .

وثمة نقطتان أخريان تجدر الإشارة إليهما .

أولا : إن كثيرا من الأعضاء « الذين ألقوا كلمات في هذا المؤتمر تأثروا بالنظريات العنصرية التي كانت سائدة في ذلك الوقت في أوروبا فركزوا جل اهتمامهم على كبرياء الجنس عند العرب كمقوم أساسي من مقومات العروبة . وظهر ذلك واضحاً في خطاب ، عبد الغني العريسي « حقوق العرب في المملكة العثمانية » الذي قال فيه :

« هل للعرب حق جماعة ؟ إن الجماعات في نظر علماء السياسة لا تستحق هذا الحق إلا إذا جمعت — على رأي العلماء الألمان — وحدة اللغة ووحدة الجنس ، وعلى رأي العلماء الطليان ، وحدة التاريخ ووحدة العادات ، وعلى مذهب ساسة الفرنسيين ، وحدة المطمع السياسي . فإذا نظرنا إلى العرب من هذه الوجوه الثلاثة وجدنا أن لهم الحق في أن يكون لهم حق جماعة ، حق شعب ، حق أمة .

وكذلك فإن نادرة مطران أشار إلى أن الجنس عند العرب أولى بالرعاية من الدين . وأشار إلى قصة العرب الغساسنة

المسرحيين الذين كانوا يحرسون أبواب سورية وقت خضوعها للامبراطورية البيزنطية التي تدين بالمسيحية ، بل وتمثل هذا الدين في الشرق ، إذ هجروا أماكنهم الدفاعية وسهلوا للعرب المسلمين غزو سورية لاشتراكهم معهم في الجنس العربي .

وسار عبد الحميد الزهراوي — رئيس المؤتمر — في ذات الاتجاه متخذا من فشل الحكومتين العثمانية والفارسية ، وهما مشتركتان في الدين الإسلامي ، في إزالة الخلاف القائم بينهما على الحدود ، اتخذ من هذا الفشل دليلا على عدم كفاية الدين وحده كعنصر من عناصر الوحدة .

ثانيا : إن القائمين على المؤتمر لم يسمحوا لغير السوريين والعراقيين بالكلام أو بالاشتراك في المناقشات التي دارت عقب الخطب .

وقد حدث أن طلب أحد الحاضرين وكان مصريا أن يتكلم فلم يسمح له الرئيس على أساس أنه رغم عروبته فإنه لا يمكنه الاشتراك في المؤتمر ، إذ كان هذا المؤتمر يهدف إلى معالجة مشاكل الأقاليم العربية في الأمبراطورية العثمانية والتي لا تعتبر مصر جزءا منها بعد احتلال الإنجليز لها منذ سنة ١٨٨٢ . ولم

يعقب أحد من أعضاء المؤتمر على هذه الحادثة مما يدل على أن التفكير الذى كان يسود المؤتمر فى ذلك الوقت هو استقلال العرب من الحكم العثمانى وليس استقلالهم من مطلق الحكم الأجنبي، وأن الوحدة المنشودة بين الدول العربية فى ذلك الوقت كانت وحدة بين الأقاليم العربية الخاضعة للحكم العثمانى فعلا وليست وحدة عربية شاملة كالتى ينشدها العرب الأحرار اليوم.

* * *

ولما كانت الحكومة العثمانية قد فشلت فى منع عقد المؤتمر، فقد سلكت سبيل الملاطفة والملاينة، فدعت زعماء هذا المؤتمر إلى العودة بعد انتهائه قاطعة على نفسها عهداً بضرورة تنفيذ قراراته. وحين عاد المبعوث التركى الذى كانت الحكومة قد أوفدته للتفاوض مع زعماء المؤتمر العربى كان برفقته عبد الكريم خليل الذى كان رئيس المنتدى الأدبى ومندوب الشبيبة العربية. وجرت المفاوضات بينه وبين وزير الداخلية العثمانى، وانتهت هذه المفاوضات بعقد اتفاقية وقع عليها الوزير باسم المركز العام لجمعية الاتحاد والترقى، وعبد الكريم خليل باسم الشباب العربى. وتقرر أن يبقى أمر هذه الاتفاقية خافيا حتى تتخذ جمعية الاتحاد

والترقى التدابير اللازمة لإصدار القوانين واللوائح والتعليمات التى تضع هذه المبادئ موضع التنفيذ .

وصدرت بعد ذلك بعض التشريعات كمرسوم أغسطس سنة ١٩١٣ التى لم تبين ما اتفق عليه بين مندوب جمعية الاتحاد والترقى ومندوب المؤتمر العربى ، إذ ورد بهذا المرسوم كثير من التحفظات على المبادئ التى أعلنها المؤتمر وعلى ما تضمنته الاتفاقية المشار إليها فأصيب العرب بخيبة أمل ، وهكذا فشل مؤتمر باريس فى تحقيق المبادئ التى قام عليها ونادى بها ، حتى لم يبق أمام الأحرار من العرب سبيل إلى التفاهم مع الأتراك . وجاءت بعد ذلك الحرب العالمية الأولى فأتاحت للعرب القيام بالثورة الشاملة ضد الحكم العثمانى .

الجهاد الوطنى فى مصر :

قلنا إن مصر كانت قد وقعت تحت براثن الاحتلال البريطانى منذ سنة ١٨٨٢ عقب الثورة العرابية . ورغم أن أرض النيل كانت جزءاً من الدولة العثمانية قانوناً ، إلا أن ظروفها الخاصة وأهمها التقدم الحضارى وقوتها العسكرية اللذان اجتمعا لها على يد محمد على جعل هذه التبعية اسمية أكثر منها فعلية ، فوضعها كان

مختلفا عن وضع جميع الأقاليم العربية الخاضعة للحكم العثمانى ، ولذلك فقد كان لها جهادها الخاص الذى قصدت منه إلى مقاومة الحكم التركى ثم الحكم الإنجليزى من بعده . . .

وانشغال الزعماء المصريين بقضية مصر خاصة دون قضية العروبة بوجه عام ، لاينهض دليلا على إنكارهم للعرب والعروبة ، ولا يعنى فى جميع الأحوال وجود نزعة إقليمية أو عصبية لديهم ، وإنما كانت نتيجة منطقية لما يقضى به الواقع العملى . فقد كان احتلال بريطانيا لمصر نكسة للنهضة التى كانت تحمل مصر مشعلها ، وكان لابد لها من أن تتحرر من هـذا الاستعمار حتى تعاود النهوض بنفسها ، فإذا ماتم لها ذلك ، أمكن أن تأخذ بيد غيرها من الأقاليم العربية التى تقع تحت سلطان الدولة العثمانية ، فالاستعمار البريطانى كان أمراً دخيلا وجهت كل العناصر الوطنية هجومها عليه لتتخلص بالوطن لأبنائه ، فما كان لديها وقت لتنشغل فيه بغير هذه القضية الوطنية . وبريطانيا فى مصر لم تكن تتصور أن تسمح باتصال العناصر الوطنية فيها بالعناصر الوطنية فى الأجزاء الأخرى من العالم العربى . فمنطق الاستعمار « فرق تسد » وهذا المنطق يحول بين إمكان التعاون بين العناصر الوطنية عبر الحدود السياسية المصطنعة . وساعد كل ذلك أن العناصر القومية

فى سورية والعراق لم تكن تنظر إلى مصر كدولة عربية فى ذلك العهد نظرة جدية ، لأن منطقها كان يقضى بأن القبيلة والعشيرة هما مركز الثقل فى التكوين الشعبي العربى ، وما دامت مصر خلواً منهما إلا قليلا فهى لاتعتبر عربية فى شىء ..

وعلى ذلك لايمكن القول بأن الوعى القومى تأخر عن الظهور فى مصر ، فقد كانت حماسة المصريين لتخليص وطنهم من الاستعمار البغيض ، تشكل ناراً متأججة كانت تحرق الإنجليز وكانوا يحاولون إطفاءها بالدماء التركية المراقة ..

الثورة العربية الكبرى :

قلنا إن العلاقات العربية العثمانية ، كانت تسير من سىء إلى أسوأ وخاصة بعد أن تنكرت الدولة العثمانية (تركيا) لمطالب العرب التى أعربوا عنها فى مؤتمر باريس . وما إن اشتعلت نار الحرب العالمية الأولى حتى زادت من اقتناع العرب بأنه لامحيص عن الانفصال الكلى عن تركيا وتأسيس دولة عربية مستقلة ..

وقد بدأت الثورة العربية من الحجاز تحت زعامة الشريف حسين أمير الحجاز . ولكنها لم تكن ثورة حجازية كانت عربية ترمى إلى استقلال الولايات العربية بأكملها وتكوين دولة عربية

موحدة تنهض بالأمة نهضة تعيد إليها مجدها السالف . ولذلك فقد اشترك في هذه الثورة رجال من معظم الأقطار العربية ، فكان فيها السورى والعراقى والحجازى واللبنانى والفلسطينى كما كان بينهم المسلم والمسيحى . .

وقد ساعد على قيام هذه الثورة فى الحجاز موقعها الجغرافى . فالحجاز بعيدة عن عاصمة الدولة العثمانية ولا توجد بها قوات تركية كبيرة ، كما أنها بعيدة عن طرق المواصلات ، ولذا فإن من الصعب على الحكومة المركزية أن تسارع إلى إرسال النجدات لقمع الثورة هناك . هذا فضلا عن أن الحجاز كانت بها عشائر مسلحة كثيرة . .

ولم تقف جيوش الثورة عند حد إعلان العصيان على تركيا فى الحجاز نفسها ، إذ ماجاء شهر يونية ١٩١٦ حتى بدأت الثورة تتجه إلى الشمال معلنة انحيازها إلى الإنجليز (الحلفاء) كانت تركيا قد دخلت الحرب ضدهم مع ألمانيا . ولم يكن ذلك إلا بعد جملة مراسلات بين الشريف حسين ومكماهون الذى كان مندوبا سامياً لبريطانيا فى مصر سميت بمراسلات حسين — مكماهون التى استثنت من الحدود المرسومة فى « بروتوكول دمشق » وهو الذى وضعه الزعماء العرب فى دمشق ومعهم فيصل

ابن الحسين ليكون أساساً للتحالف مع بريطانيا ، مقاطعتى مرسين والاسكندرونة وأقساما من سورية تقع إلى الغرب مما سماه متصرفيات دمشق وحمص وحماة وحلب على افتراض أنها ليست عربية خالصة ، فبهذا التعديل بدون الإضرار بمعاهدات بريطانيا مع الشيوخ العرب ، وبدون الإضرار بمصالح فرنسا حليفة بريطانيا ، تعهدت الحكومة البريطانية بأن « تعترف باستقلال العرب وتؤيده فى جميع المناطق الواقعة ضمن الحدود التى طالب بها شريف مكة . . »

على أن الشريف حسين وافق على استثناء مرسين فقط ، ورفض الموافقة على استثناء شبر واحد من أراضى سورية التى يقطنها العرب ، ولو لم يكن جميع هؤلاء العرب من المسلمين إذ قال إنه « لا فرق بين عربى مسلم وعربى مسيحى فكلاهما أحفاد جد واحد » .

وقد خلد لورانس هذه الثورة العربية فى كتابه « أعمدة الحكمة السبعة » وكأنه يعبر عن رأى الإنجليز : « أن هذه الثورة من صنعهم . ورغم أن معاهدة الإنجليز الأدبية والعسكرية شجعت العرب على محاربة العثمانيين إلا أن هذه الثورة كانت عربية لحماً ودماً . ولا أدل على ذلك من أن الجنرال مورى وجد عندما

كان يتقـدم إلى فلسطين فى ربيع سنة ١٩١٧ « أن القوات التركية التى كانت تحارب العرب تزيد على القوات التى كانت تحاربه » . .

وقد توجت الثورة بنجاحها فى دخول دمشق فى أكتوبر ١٩١٨ فاهتزت أرجاء العالم العربى لهذا النصر لمـا لدمشق من أهمية خاصة فى نفوس العرب . .

وقوبل فيصل قائد الجيش العربى بالهتاف والأعلام ، وأعلنت المدن السورية كلها انضمامها للثورة وإذعانها لأوامر القيادة العربية . واشتركت المدن اللبنانية أيضا فى هذه الحركة حتى قامت الحكومة العربية فى سورية فى جو حماسى أكد لفكرة الوطنية العربية بالرسوخ متحررة من النزعة العثمانية . .

* * *

وفى أثناء كل ذلك لم تكن بريطانيا مخلصة للعرب حين ساندتهم ضد تركيا ، وإنما كانت تعمل لصالحها هى ولصالح الدول الاستعمارية الأخرى . فقد وضعت مؤامرتين لتقسيم البـلاد العربية التى انفصلت عن تركيا بغير علمهم . .

فعقدت بمدينة بطرسبورج الاتفاقية الأولى فى سرية تامة بين بريطانيا وفرنسا وروسيا فى مارس سنة ١٩١٦ وهى تعرف

باسم اتفاقية سايكس بيكو والتى نصت على تقسيم غنائم الحرب من الدولة العثمانية بين الدول الثلاث . .

أما روسيا فقد اختصت فى شرق الأناضول بالولايات الأربع المجاورة للحدود الروسية التركية التى تشكل أرمينية التركية ، وكذلك بعض الأقاليم الواقعة بين البحر الأسود وإقليم الموصل — أراميا — ويبين من ذلك أن ما استولت عليه روسيا كان خارج العالم العربى .

واختصت فرنسا بالجزء الغربى من سورية إلى جانب ولاية الموصل بما فى ذلك لبنان ، ثم ولاية أطنة ومرسين . وكذلك منحت فرنسا منطقة نفوذ أخرى بداخل سورية تشمل الموصل ودمشق وحمص وحماة وحلب . .

أما انجلترا فقد اجتزأت منطقة ما بين النهرين بما فى ذلك البصرة على الخليج العربى ، ثم بغداد ثم داخلية العراق . أما فلسطين فرغم مطالبة فرنسا بها على أساس أنها الجزء الجنوبى لسورية ، فقد قامت انجلترا بتدويلها مع الاحتفاظ لنفسها بحق الإشراف على مينائى حيفا وعكا على البحر الأبيض المتوسط . .
وكذلك تضمن اتفاق سايكس — بيكو النص على إقامة

دولة عربية مستقلة او حلف دول عربية تحت رئاسة رئيس عربى تعترف بها بريطانيا وفرنسا وتتعهد بحمايتها . .

وهكذا يبين أن بريطانيا لم تراع فى هذه الاتفاقية الوعود التى سبق أن قطعتها على نفسها فى مراسلات الحسين — مكماهون ولم تعرف أسرار هذا الاتفاق السرى حتى أذاعته الحكومة الروسية البلشفية بعد قيام الثورة الماركسية فى نوفمبر ١٩١٧ . وعندئذ فقط عرف العرب بالمؤامرة التى حاكها الإنجليز . .

أما المؤامرة الأخرى فقد ظهرت فى تصريح بلفور المشئوم فى ٣ نوفمبر سنة ١٩١٧ وفيه وعدت بريطانيا اليهود بإنشاء وطن قومى لهم فى فلسطين العربية . وهذا التصريح جاء فى صورة خطاب مرسل من وزير الخارجية البريطانية لورد بلفور إلى لورد روتشيلد الصهيونى احتوى ما يلى من عبارات :

« إن حكومة جلالة الملك تنظر بعين العطف إلى تأسيس وطن قومى للشعب اليهودى فى فلسطين ، وستبذل جهدها لتسهيل تحقيق هذه الغاية . على أنه يفهم جليا أنه لن يؤتى بعمل من شأنه أن يغير من الحقوق المدنية والدينية التى تتمتع بها الطوائف غير اليهودية المقيمة الآن فى فلسطين ، ولا الحقوق أو الوضع السياسى الذى يتمتع به اليهود فى البلدان الأخرى . . »

وعرف العرب أنهم ضحية تغرير بريطانيا ، فاحتجوا على هذا التصريح أشد الاحتجاج ، وطلب الحسين تفسيراً من بريطانيا ، فأرسلت اليه رسالة مطمئنة تقول فيها : إنها تضمن حرية السكان العرب السياسية والاقتصادية ، وذلك خلافا لوعد بلفور الذى لم يضمن لهم سوى الحرية المدنية والدينية . .

وصدرت من أمريكا تأكيدات فى هذا المعنى : إذ جاء فى النقطة الثانية عشرة من النقاط الأربع عشرة التى أعلنها الرئيس الأمريكى ويلسون أمام الكونجرس الأمريكى فى ٨ يناير ١٩١٨ « أن القوميات الأخرى التى تخضع الآن للحكم التركى يجب أن تطمئن إلى حياة آمنة لا شك فيها وإلى الفرصة المطلقة فى أن تنمو نمواً ذاتيا من غير إكراه » ثم أعلن فى خطابه الذى ألقاه فى ٤ يوليو من السنة نفسها « أن أساس أية تسوية تلى الحرب يجب أن تكون بموافقة الشعوب التى يعنيها الأمر » . .

ثم عقد مؤتمر الصلح فى باريس سنة ١٩١٩ وشهده ممثلا عن العرب الأمير فيصل بن الحسين رئيسا للوفد الحجازى . وهناك طالب باستقلال البلاد العربية . إلا أنه تكشفت له نوايا بريطانيا السياسية وعرف أنها وفرنسا قد اتفقتا على تقسيم البلاد العربية إلى مناطق نفوذ بينهما . .

وفى أبريل سنة ١٩٢٠ قرر مجلس الحلفاء الأعلى الذى انعقد فى سان ريمو إعطاء بريطانيا الانتداب على العراق وفلسطين وشرق الأردن ، وأعطيت فرنسا الانتداب على سورية ولبنان. فكان هذا الانتداب قناعا قانونيا وراءه استعمار رهيب . لذلك تعرف سنة ١٩٢٠ بأنها النكبة على العالم العربى . .

ويكفى تدليلا على ما ارتكبه الانجليز من تغرير العرب ما كتبه لورانس فى مؤلفه أعمدة الحكمة السبعة : « إذا ربحنا الحرب ، فإن عهدتنا للعرب أوراق ميتة . غير أن الاندفاع العربى كان وسيلتنا الرئيسية فى كسب الحرب الشرقية . وعلى ذلك أكدت لهم أن بريطانيا تحافظ على كلمتها نصا وروحا فاطمأنوا إلى هذا القول وقاموا بالكثير من الأعمال العظيمة . ولكننى بالطبع بدلا من أن أكون فخوراً بهذا الذى فعلناه معاً ، كنت أشعر دائما بمرارة الخجل . . »

* * *

ثم جرت بعد ذلك أحداث كثيرة فى العالم العربى إلى أن أراد الله للنور أن يبزغ فقامت ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ التى أحدثت تغييراً جذريا فى الأوضاع التى يقوم عليها مجتمعنا العربى . وسنخصص لثورة ٢٣ يوليو كتابا مستقلا نرجو أن نتمكن من إخراجه فى القريب بإذن الله .

المكتبة الثقافية

تحقق اشتراكية الثقافة

صدر منها

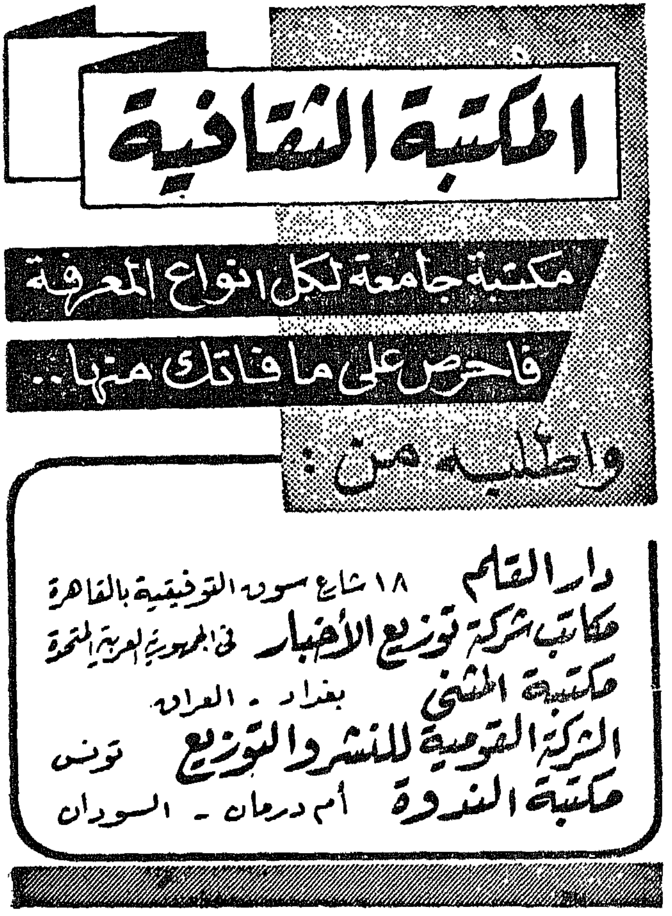
١	— الثقافة العربية أسبق من ثقافة اليونان والعبريين	للأستاذ عباس محمود العقاد
٢	— الاشتراكية والشيوعية	للأستاذ على أدهم
٣	— الظاهر بيبرس فى القصص الشعبي	للدكتور عبد الحميد يونس
٤	— قصة التطور	للدكتور أنور عبد العليم
٥	— طب وسحر	للدكتور پول غليونجى
٦	— فجر القصة	للأستاذ يحيى حقى
٧	— الشرق الفنان	للدكتور زكى نجيب محمود
٨	— رمضان	للأستاذ حسن عبد الوهاب
٩	— أعلام الصحابة	للأستاذ محمد خالد
١٠	— الشرق والإسلام	للاستاذ عبد الرحمن صدقى
١١	— المريخ	للدكتور جمال الدين الفندى والدكتور محمود خيرى
١٢	— فن الشعر	للدكتور محمد مندور
١٣	— الاقتصاد السياسى	للاستاذ أحمد محمد عبد الخالق
١٤	— الصحافة المصرية	للدكتور عبد اللطيف حمزة
١٥	— التخطيط القومى	للدكتور ابراهيم حلمى عبد الرحمن
١٦	— ألحادنا فلسفة خلقية	للدكتور ثروت عكاشة
١٧	— اشتراكية بلدنا	للأستاذ عبد المنعم الصاوى

١٨ — طريق الغد ... ... للاستاذ حسن عباس زكى
١٩ — التشريع الإسلامى وأثره فى الفقه الغربى — للدكتور محمد يوسف موسى
٢٠ — العبقرية فى الفن ... ... للدكتور مصطفى سويف
٢١ — قصة الأرض فى إقليم مصر ... للأستاذ محمد صبيح
٢٢ — قصة الذرة ... . للدكتور إسماعيل بسيونى هزاع
٢٣ — صلاح الدين الأيوبى بين شعراء عصره وكتابه — للدكتور أحمد أحمد بدوى
٢٤ — الحب الإلهى فى التصوف الإسلامى للدكتور محمد مصطفى حلمى
٢٥ — تاريخ الفلك عند العرب... ... للدكتور إمام إبراهيم أحمد
٢٦ — صراع البترول فى العالم العربى ... للدكتور أحمد سويلم العمرى
٢٧ — القومية العربية ... ... للدكتور أحمد فؤاد الأهوانى
٢٨ — القانون والحياة ... ... للدكتور عبد الفتاح عبد الباقى
٢٩ — قضية كينيا ... ... للدكتور عبد العزيز كامل
٣٠ — الثورة العرابية ... ... للدكتور أحمد عبد الرحيم مصطفى
٣١ — فنون التصوير المعاصر ... للأستاذ محمد صدقى الجباخنجى
٣٢ — الرسول فى بيته ... ... للاستاذ عبد الوهاب حمودة
٣٣ — أعلام الصحابة (المجاهدون) ... للأستاذ محمد خالد
٣٤ — الفنون الشعبية ... ... للأستاذ رشدى صالح
٣٥ — إخناتون ... ... للدكتور عبد المنعم أبو بكر
٣٦ — الذرة فى خدمة الزراعة ... ... للدكتور محمود يوسف الشواربى
٣٧ — الفضاء الكونى ... ... للدكتور جمال الدين الفندى
٣٨ — طاغور شاعر الحب والسلام ... للدكتور شكرى محمد عياد
٣٩ — قضية الجلاء عن مصر ... ... للدكتور عبد العزيز رفاعى
٤٠ — الخضراوات وقيمتها الغذائية والطبية للدكتور عز الدين فراج

٤١ — العدالة الاجتماعية ... ... للأستاذ المستشار عبد الرحمن نصير
٤٢ — السينما والمجتمع ... ... للأستاذ محمد حلمي سليمان
٤٣ — العرب والحضارة الأوربية ... للأستاذ محمد مفيد الشوباشي
٤٤ — الأسرة في المجتمع المصري القديم للدكتور عبد العزيز صالح
٤٥ — صراع على أرض الميعاد ... للأستاذ محمد عطا
٤٦ — روّاد الوعي الإنساني ... ... للدكتور عثمان أمين
٤٧ — من الذرة إلى الطاقة ... ... للدكتور جمال الدين نوح
٤٨ — أضواء على قاع البحر ... ... للدكتور أنور عبد العليم
٤٩ — الأزياء الشعبية ... ... للأستاذ سعد الخادم
٥٠ — حركات التسلل ضد القومية العربية للدكتور إبراهيم أحمد العدوي
٥١ — الفلك والحياة ... ... للدكتور عبد الحميد سماحة والدكتور عدلي سلامة
٥٢ — نظرات في أدبنا المعاصر ... للدكتور زكي المحاسني
٥٣ — النيل الخالد ... ... للدكتور محمد محمود الصياد
٥٤ — قصة التفسير ... ... للأستاذ أحمد الشرباصي
٥٥ — القرآن وعلم النفس ... ... للأستاذ عبد الوهاب حمودة
٥٦ — جامع السلطان حسن وما حوله... للأستاذ حسن عبد الوهاب
٥٧ — الأسرة في المجتمع العربي بين الشريعة الإسلامية والقانون للأستاذ محمد عبد الفتاح الشهاوي
٥٨ — بلاد النوبة ... ... للدكتور عبد المنعم أبو بكر
٥٩ — غزو الفضاء ... ... للدكتور محمد جمال الدين الفندي
٦٠ — الشعر الشعبي العربي ... ... للدكتور حسين نصار
٦١ — التصوير الإسلامي ومدارسه ... للدكتور جمال محمد محرز
٦٢ — الميكروبات والحياة ... ... للدكتور عبد المحسن صالح

٦٣ — عالم الأفلاك ... ... للدكتور إمام ابراهيم أحمد
٦٤ — انتصار مصر فى رشيد ... ... للدكتور عبد العزيز رفاعى
٦٥ — الثورة الاشتراكية (قضايا ومناقشات) للأستاذ أحمد بهاء الدين
٦٦ — الميثاق الوطنى قضايا ومناقشات للأستاذ لطفى الخولى
٦٧ — عالم الطير فى مصر ... ... للأستاذ احمد محمد عبد الخالق
٦٨ — قصة كوكب ... ... للدكتور محمد يوسف موسى
٦٩ — الفلسفة الإسلامية ... ... للدكتور أحمد فؤاد الأهوانى
٧٠ — القاهرة القديمة وأحياؤها ... للدكتورة سعاد ماهر
٧١ — الحكم والأمثال والنصائح عند المصريين القدماء } للأستاذ محرم كمال
٧٢ — قرطبة فى التاريخ الإسلامى } للأستاذ محمد محمد صبيح والدكتور جودة هلال
٧٣ — الوطن في الأدب العربى ... للأستاذ ابراهيم الابيارى
٧٤ — فلسفة الجمال ... ... للدكتورة أميرة حلمى مطر
٧٥ — البحر الأحمر والاستعمار ... للدكتور جلال يحيي
٧٦ — دورات الحياة ... ... للدكتور عبدالمحسن صالح
٧٧ — الإسلام والمسلمون فى القارة الأمريكية } للدكتور محمد يوسف الشواربى
٧٨ — الصحافة والمجتمع ... ... للدكتور عبد اللطيف حمزة
٧٩ — الوراثة ... ... للدكتور عبد الحافظ حلمى
٨٠ — الفن الإسلامى فى العصر الأيوبى للدكتور محمد عبد العزيز
٨١ — ساعات حرجة فى حياة الرسول للأستاذ عبد الوهاب حمودة
٨٢ — صور من الحياة ... ... للدكتور مصطفى عبد العزيز

الثمن قرشان فقط


المكتبة الثقافية
مكتبة جامعة لكل انواع المعرفة
فاحرص على ما فاتك منها..
واطلبه من:
دار القلم ١٨ شارع سوريا التوفيقية بالقاهرة
مكاتب شركة توزيع الأخبار في الجمهورية العربية المتحدة
مكتبة المثنى بغداد - العراق
الشركة القومية للنشر والتوزيع تونس
مكتبة الندوة أم درمان - السودان

مطابع دار القلم بالقاهرة

المكتبة الثقافية

- أول مجموعة من نوعها تحقق اشتراكية الثقافة .
- تيسر لكل قارىء أن يقيم فى بيته مكتبة جامعة تحوى جميع ألوان المعرفة بأقلام أساتذة متخصصين وبقرشين لكل كتاب .
- تصدر مرتين كل شهر . فى أوله وفى منتصفه .

الكتاب القادم

قصر الحمراء

الدكتور محمد عبد العزيز مرزوق

١٥ أغسطس ١٩٦٣

الثمن ٢ ص

مطابع دار القلم بالقاهرة